روايات عبير

اليزابيث هنتر

اللهب والفراشة

www.elromancia.com

٤٣

مرمورية

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 43

اللهب والفراشة

حين يضيء الحب قناديله على شرفات القلب، هل يفرق بين غني وفقير؟ وحين تقسو الأقدار وتقطر عذاباتها، هل تفرّق بين قلب وقلب؟

مادلين الفتاة المعدمة والمتوسطة الجمال، ما كانت تحلم بسعادة تفوق احتمالها. وعندما اشار لها الحب بأصبعه تبعته كالفراشة الى آخر الدنيا. هذا ما حصل، وهي التي لم تعرف مارك بلك إلاّ منذ وقت قصير جداً. فما الذي سيجري عندما تعرفه لفترة أطول، وتعيش معه في بيت واحد.

الفراشة تحلم بالنور يزيح عتمات الحياة، وكلما اقتربت من الحقيقة، اقترب جناحاها من الحريق. فمن منّا لا يفضّل الاحتراق في النور على البقاء في برودة الظلمات؟ مادلين... مادلين الى أين أخذك الحب؟

لبنان	٧ ل.ل.	الكويت	٧٠٠ ف	اليمن	٨ ر	السودان	٨٠٠م
سورية	٨ ل.س	الامارات	٩ د	تونس	١ د	U.K.	£ 1
الأردن	٥٠٠ ف	البحرين	٩٠٠ ف	ليبيا	٧٠٠ د	France	F 10
العراق	٥٠٠ ف	قطر	٩ ر	المغرب	٨ د	Greece	Drs 120
السعودية	٨ ر	عمان	٩٠٠ ب	مصر	٨٠٠م	Cyprus	P 1

١ ـ انت في العين

تنفست مادلين كارفيل الصعداء، وأحست بأنها محظوظة. فهذه أول مرة منذ مجيئها الى اسطنبول تواجه فيها مثل هذا الموقف، إلاّ أنها المرة الأولى أيضاً التي تستطيع فيها الابتعاد لعدّة ساعات عن مرافقة السيدة التي تعمل لديها. لم يكن السبب في ذلك كراهيتها لأورسولا أديناي فهي تشعر بالأسف نحوها، لأنها شابة وجميلة، وترمّلت في مقتبل العمر، وقد ترك لها زوجها داراً للنشر آخذة في الاتساع، وتصدر سلسلة من المجلات. كانت تنشأ بينهما بعض الاحتكاكات تفسرها مادلين بأنها ترجع الى ان السيدة أديناي أمريكية، مما يجعل هناك سوء فهم يثير الضحك بينهما في إدراك معاني بعض الكلمات في لغتهما المشتركة، فكلمة غوينت، على سبيل المثال، تعني بالنسبة الى مادلين قطعة من اللحم. في حين تفهمها السيدة أديناي على أنها تشير الى الفندق الذي ينزلان به. وعلى هذا فإن السيدة أديناي عندما كانت تذم الفندق وتصفه بأنه بال وعتيق، كانت مادلين تدهش لأن طعامها تم طهيه وإعداده بعناية تامة؛ وفي الحقيقة كانت مادلين تعتبر الفندق ممتازاً، ولكنها لا تملك الكثير من المال، في حين كانت السيدة أديناي شابة ثرية جداً.

ولم تكن مادلين تعرف بالضبط ما الذي تفعلانه في تركيا،

ودهشت لأن مدير مكتب فرع لندن لدار أديناي للنشر وقع اختياره عليها لمرافقة السيدة أديناي في سفرها، وكان من الأفضل اختيار شخص آخر أكبر سناً، وله قدرة على ضبط النفس أمام النزوات المندفعة للسيدة أديناي. واعتقد مدير المكتب، الذي تولى بسرعة حجز تذاكر بالدرجة الأولى على الطائرة المتجهة الى اسطنبول، أن السيدة أديناي قد تجد في نفسها الرغبة لكتابة مقالين أثناء زيارتها لتركيا، ومن ثم فإنها ستحتاج الى سكرتيرة لتعاونها.

ومع أول لقاء بين مادلين والسيدة أديناي، تلاشى أي أمل لدى مادلين في قدرتها على تحمل أسلوب رفيقتها في المعاملة. فقد سألتها السيدة أديناي وهي تتخذ منها موقفاً عدائياً منذ اللحظة الأولى:

«اين عثروا عليك؟»

ذهلت مادلين وانعقد لسانها وساورتها الشكوك فيما اذا كان مظهرها له صلة بهذا الاسلوب، الذي تخاطبها به السيدة أديناي. فهي صغيرة وسمراء، ولها عينان متسعتان لونهما بني يشع منهما بريق عندما تضحك، وشعرها أسود فاحم، ولم يكن شكلها من النوع العادي الذي يروق لكل فرد. أما السيدة أديناي فجمالها من النوع التقليدي، لها ساقان مديدتان، وعينان زرقاوان تميلان الى اللون الرمادي، ولها تلك النظرة المصقولة التي يتميّز بها الأمريكيون في كل مكان.

وردت عليها مادلين قائلة:

«إنني أعمل هنا في المكتب».

«حسناً...ما رأيك في أن تكوني مرافقة لي لبعض الوقت؟»

وفوجئت مادلين بذلك لأنها طالما كانت تتوق الى رؤية

اسطنبول بمفردها، ولكن لم تكن لديها الفرصة لتناقش الأمر مع السيدة أديناي التي ستتيح لها هذه الزيارة، وأجابتها قائلة:

«سأبذل قصارى جهدي في هذا السبيل».

«أرجو ان يكون جهدك كافياً، وسيكون تصرفك وجهدك في الاتجاه السليم فعلا، إن أنت لزمت الصمت وابتعدت عن طريقي، ولم تسيطر على عقلك فكرة أنه تم اختيارك لكي تصبحي حارساً لي، وأتوقع ان تجدي مهمتك غير مبهجة، ولكنها ليست غلطتي، لأنني لم أطلب مرافقتك لي!»

وجدت مادلين في مهمتها فعلا شيئاً من عدم البهجة، فقد ظلت منذ وصولها حبيسة في الفندق الذي نزلتا به في القسم الحديث من المدينة، في حين راحت السيدة أديناي تبذل جهودها في البحث عن مارك شقيق زوجها الذي قالت انه يقيم في مكان ما من اسطنبول، ما لم يكن خارج المدينة يلهو مع إحدى النساء.

والانطباع الذي أخذته مادلين، أن شقيق زوج أورسولا أديناي ذئب بشري، وأحست نحوه بكراهية شديدة كان يكفي لبثها في نفسها لو صحت حتى نصف القصص التي روتها عنه أورسولا. فهو رجل استغل ثروته في التغرير بالنساء، الشابات البريئات، وراح يباهي بغزواته أمام الجميع. لقد تمنت مادلين ان يظل هذا الرجل مفقوداً في مكان ما بالبلاد.

ولكن الأمر يختلف تماماً اليوم، فقد ذهبت أورسولا بعد الظهر لتمضية الوقت بصحبة بعض الأصدقاء الأمريكيين الذين يقيمون في اسطنبول، وأصبح أمام مادلين بضع ساعات لتستمتع فيها بحريتها بعيداً عن رفقة السيدة أديناي، وقررت القيام بجولة في

المدينة برغم أن أورسولا تكره هذا النوع من النشاط. واستقر رأيها على زيارة قصر توبكابي الذي سمعت عنه.

وعندما اشترت بطاقة لزيارة القصر، قيل لها إن عليها شراء بطاقة أخرى، إذا أرادت زيارة الجناح الخاص بالحريم في هذا القصر الذي كان يملكه احد السلاطين العثمانيين. وبعدها أتيح لها عشر دقائق لمشاهدة المنظر الرائع عبر مضيق البوسفور المؤدي الى الجزء الآسيوي من المدينة.

وعادت الى جناح الحريم في الوقت المناسب، وأخذت مكانها بين بقية السياح الذين رافقهم دليل. وكانوا مجموعة من الفرنسيين والبريطانيين والأمريكيين. ولفت نظرها رجل غريب بين تلك المجموعة. وجهه أسمر ولا يبدو من ملامحه أنه بريطاني ولا فرنسي. إذاً فلا بدّ ان يكون تركياً. وتساءلت عما جاء به الى هذا المكان؟ وأخذ يشق طريقه وسط المجموعة بطريقة ملفتة للنظر، الى ان استقر الى جوار مادلين التي تظاهرت بعدم الاكتراث به، ولكنها لاحظت أنه ابتسم لها ابتسامة خفيفة. وفجأة ناداها قائلا:

«مرحباً يا مليحة!»

قال كلمة مليحة بالتركية التي لم تفهمها، وإن أدركت المعنى المقصود منها، وادارت رأسها نحوه قليلا لترى رد فعله إزاء تجاهلها له، ولكنها لاحظت أنه يرقب محاولتها هذه، مما جعل خديها يكتسيان بحمرة الخجل. وأحست بارتياح عميق لأن الدليل بدأ في تلك اللحظة يجمع السياح حوله ليشرح لهم باللغتين الانكليزية والفرنسية.

وتجاهل الرجل الغريب هذا الدليل وقال لمادلين:

«إن ما تشاهده ليس إلا جزءاً بسيطاً من جناح الحريم، أما الجزء الباقي

فهو شاسع جداً، ففيه ثلاثمائة غرفة على الأقل».

ولاحظت مادلين ابتعاد بقية المجموعة عنها، فقالت للرجل الغريب إنها تفضل الاستماع الى الدليل. فردّ عليها بأنه من الأفضل لها الاستماع اليه هو حتى تعرف حقيقة الحريم. وشرح لها بأن هناك فئة من الرجال السود، الأشداء، مهمتهم حماية مجتمع النساء، ومن هؤلاء أيضاً مجموعة من الرجال البيض، ولكن السود كانوا يتمتعون بثقة أكبر في هذا المجال، وكان لزعيمهم الذي يدعى كيزلار أجازي سلطة كبيرة في عالم الحريم.

وأحست مادلين بالاسى نحو هؤلاء الحراس الذين أرغموا على العيش هنا وتراجعت مذعورة وهي ترى ثلاثة طوابق مستديرة تحيط بفناء صغير، وفي كل طابق عشر غرف كالزنزانات، ويقيم فيها مئات، مما يبين مدى المتاعب التي كانوا يعانون منها.

سمعت مادلين ما فيه الكفاية، فتركت الرجل الغريب واندفعت نحو السياح لتلحق بهم وتدس بنفسها بينهم. وأخذ الدليل يطوف بهم داخل القاعات الدراسية للأمراء، ومساكن الاماء، والجناح الخاص بأم السلطان التي اعتبرت اقوى امرأة في الحريم، وتمتعت بنفوذ خاص على ابنها السلطان، ومن خلاله كانت تبسط نفوذها على الامبراطورية كلها.

وأخذ الرجل الغريب يتدخل أثناء شرح الدليل، ويفيض في الرد على أسئلة أفراد المجموعة التي عجز الدليل عن إعطاء ردود شافية عليها، مما جعل السياح ينتبهون اليه، ويتوجهون اليه بأسئلتهم، مما جعل الدليل يتوقف عن الشرح، ثم تحدث بالتركية إلى الرجل الغريب الذي ضحك، وابتسم الدليل هو الآخر وقال لأفراد مجموعة السياح:

«إن ماروك بك يستطيع الشرح لكم افضل مني».

إنه تركي اذاً! وأخذت مادلين ترمقه من طرف خفي وقد تجدد اهتمامها به. لم يكن مديد القامة، ولكن له شخصية قيادية كما كان عريض المنكبين. لم تقابل أحداً مثله في حياتها، ولا تشعر بأي ود نحوه على الاطلاق، فهو يتسم بالخشونة والعدوانية المفرطة.

والتفتت نحوه لتجده يرمقها بدون أن يحاول تحويل بصره عنها. مما جعل الدم يندفع إلى وجنتيها وأخذت تعض على شفتيها.

وراح ماروك يقول للسياح:

«الفتاة الطموحة هي التي كانت تحرص على الجلوس الى الجانب الأيمن لوالدة السلطان. فيحضر ابنها ويتناول القهوة أو الشاي مع أمه. وفي لحظة سعيدة تلفت الفتاة الجميلة نظر السلطان الابن، فان هي نجحت في هذا، فإن السلطان يخاطب أمه بشأنها، وعندئذ يتاح للفتاة أن ترتدي أفضل ما يمكن للنساء أن ترتديه، وتعرف عندئذ باسم جوزد ومعناها في العين».

ونظر بطريقة تهكمية الى مادلين التي تعمدت ألا تنظر اليه مرة اخرى، ومصممة بينها وبين نفسها على ذلك، فهو يغازلها بطريقة متعمدة، وهذا أمر سيء في حد ذاته. وبدأ أفراد المجموعة يلاحظون تبادل النظرات بينهما في صمت، ولكنه في الواقع ليس تبادلا بالمعنى المفهوم، لأنها لم تقدم على شيء ينطوي على التشجيع له.

وواصل ماروك بك حديثه وهو ما زال يرمق مادلين، ويبتسم ابتسامة عريضة، وقال:

«وإن أدخلت الفتاة السرور الشديد الى نفس سيدها فإنها تصبح إحدى محظياته. وكان يوجد منهن عدد يختلف من آن لآخر، ولكنه يبلغ عادة اثنتي عشرة محظية يعرفن باسم إكبال ومعناها النجاح، أو الحب

الطيب. والشيء الوحيد الذي يجعل لاحداهن شأناً هو أن تنجب ولداً ذكراً، مما يفتح أمامها احتال أن تصبح أم السلطان في المستقبل.»

وانحنى ماروك بك انحناءة خفيفة باتجاه مادلين، وهو يطلب من المجموعة أن تتبعه الى جناح السلطان.

ولاحظت الديكورات الفخمة داخل الجناح، والنافورة التي لا تتوقف عن العمل ليل نهار، وقارنت بين حمام السلطان وحمام الملكة فكتوريا، واغتبطت وهي تشاهد الغرفة التي كان يلتقي فيها الأمراء الصغار لقضاء وقت الترفيه. وراح ماروك يتحدث عن قسوة بعض السلاطين الى درجة أن أحدهم ألقى بامرأة من الحريم في مياه مضيق البوسفور فغرقت، وذلك لأنه ضاق ذرعاً بها. وسأل مادلين عما إذا كانت مستمتعة بهذا الجولة، فقالت وقلبها يخفق بشدة إنها كانت تفضل الاستماع الى الدليل الرسمي.

فوضع ذراعه على ذراعها وقال لها في سخرية، بأن حياة الحريم قد ألهبت خيالها، وجعلتها تتخيل نفسها إحدى المحظيات أو أم السلطان نفسها، إلا أن من الأفضل لها أن تقنع في البداية بالوضع الذي كانت تتمتع به الـ جوزد في الحريم. فردت عليه وهي تبعد ذراعه عنها:

«لم أفكر في هذا، ولكن يبدو أنك تخيلت نفسك السلطان».

«ولكن مع وجودك في الحريم فأي دور يتبقى لي لتأديته؟»

فقالت له في تبرم:

«هل تتفضل فتتركني لشأني؟»

«هل تريدين مني ان اتركك حقاً؟ اعتقد انك ترغبين في مشاهدة مجموعة الخزف في مطابخ القصر، إن لها شهرة عالمية، ولا يفوتك رؤيتها لمجرد تظاهرك بالخجل».

وأثارتها تلك العبارة الأخيرة فقالت له في حدة وغضب:

«كيف تجرؤ على هذا القول؟ ابتعد عني...وفوراً!»

ولكنه تجاهل غضبها، وعادت الابتسامة الساخرة الى شفتيه، ثم قال لها:

«ستكونين آمنة بصحبتي، اليوم على الأقل، هل توافقين؟»

وصدقته برغم أنها لا تدري ما الذي دفعها الى هذا، وبرغم أنها أحست بالامان، والحرية في ان تتركه حين تشاء، لكنها شعرت بأن مجموعة الخزف وكل شيء آخر يكتسب طابعاً أكثر إثارة في صحبته. ربما يرجع هذا الى أنه تركي، ويختلف عن اي رجل آخر قابلته في حياتها. وقالت له وهي تبتسم:

«حسناً، أوافق».

ولكن شعوراً بالخوف تملكها، فهو قد لا يلمس فيها تلك الأنوثة التي يلمسها في بنات بلده، وقد يصدم لجهلها بعاداته وطريقته في الحياة. وإزاء ترددها ضحك ضحكة خافتة جعلتها تضيق ذرعاً به، وأوشكت ان تثور في وجهه لتوقفه عند حده، ولكنه فاجأها بقوله:

«قلت لك ستكونين آمنة معي، فلماذا لا تتخلين عن هذا التصرف الحذر؟ فلن أدعك تذهبين؟»

«ولكن يجب عليّ العودة الى الفندق، السيدة التي اعمل لديها سوف تقلق إن لم أرجع في الموعد الذي حددته لها».

«ومتى هذا الموعد؟»

«بعد وقت تناول الشاي».

«إذاً سيكون أمامنا وقت طويل لمشاهدة مجموعة الخزف وتناول الشاي، ولنؤجل مشاهدة الكنوز الى يوم آخر».

وصحبها الى الحديقة الرئيسية، ومد يده فأسلمت يدها اليه، مما جعله يبتسم ثم قال لها:

«انظري الى تلك الحدائق، فمنها نقلت زهرة الزنبق الى هولندا».

«كانت لاسطنبول أهمية كبيرة، أليس كذلك؟»

«نعم، كانت ملتقى الطرق بالنسبة للعالم أجمع، وللموقع الجغرافي تأثير كبير في صنع التاريخ، فقد كان محتماً أن تصبح اسطنبول مدينة عظيمة بتجارتها وغزواتها، وكان اتساع امبراطوريتها يحمل معه بذور انهيارها، مثلما حدث بالنسبة الى القسطنطينية البيزنطية».

وسألته عن الجهة التي جاء منها الأتراك، فقال لها إنهم جاءوا من تركستان بوسط آسيا، وأن كل شعب هاجر من مكان الى آخر، في وقت من الأوقات، حتى الانكليز انفسهم! وبعد ان انتهيا من مشاهدة المجموعة الخزفية بمطابخ السلطان، أعربت عن إعجابها الشديد بها، وشكرته على صحبته لها، واقترح عليها التوجه لتناول الشاي في برج جالاتا الذي سينال إعجابها. وهناك رأت مضيق البوسفور من أعلى وكان أروع من منظره المعتاد، إذاً لقد كان ماروك بك على حق... وبدأت تعتقد أنه كذلك دائماً.

وأخذ يحدثها عن اسطنبول وجوها الشاعري، فأطرقت برأسها متمنية ألا يكون أدرك أن بعضاً من الشاعرية التي تحس بها، إنما يرجع لكونه يجلس الى جوارها. وأبلغته بأنها تعمل في مكتب فرع لندن لدار أديناي للنشر وقالت:

«هذه هي المرة الأولى التي يتاح لي فيها التجول في المدينة، فالسيدة التي أعمل لديها لا تميل الى التجوال، وجاءت الى هنا للبحث عن شقيق زوجها».

«ولماذا؟ هل فقد؟»

«إنه رجل سيء زير نساء، وهو الآن برفقة إحداهن في مكان ما بالبلاد، ومن المفروض أنه يحاضر في جامعة البوسفور، ولكنه لا يبدي اهتماماً لهذه الناحية».

«هل تعرفينه جيداً؟»

فترددت مادلين ثم قالت:

«كلا. ولكنه لا بدّ وأن يكون رجلاً بغيضاً، لأنه يتباهى بمغامراته النسائية أمام أسرته، وانا أكره الرجال الذين يتحدثون عن علاقاتهم.»

فوافقها على ذلك قائلا إنها جريمة شنعاء، ولكنه أبدى تشككه في صحة ما ذكرته السيدة التي تعمل لديها، وقال إنها ربما اخترعت تلك القصص عنه. فردت مادلين:

«ولماذا تفعل ذلك، إنها تحبه كثيراً، وجاءت الى هنا من أجله، فهي تريده ان يعود، لكي يساعدها في تسيير شؤون دار النشر التي تملكها. قتل زوجها في فييتنام وهي بحاجة لمن يساعدها، وهذا الرجل لن يعبأ حتى بمقابلتها».

فابتسم ابتسامة جافة وغامضة مما أثار المخاوف في نفسها، وتمنت لو أنها لم تذكر أمامه اسم أورسولا أديناي. وسألها عن السبب الذي يجعلها تعتقد أنه لن يقابلها، فقالت إنه لم يترك أي عنوان له ولا بدّ أنه يتهرب منها عندما علم بقدومها، ولا تعرف السيدة أديناي السبب في إحجامه عن مساعدتها. فهو على درجة من الخبرة والمهارة مثلما قالت عنه، ولكنه لا يرغب في ذلك، وربما كان له العذر في هذا.

وأبدى ماروك بك رغبته في الانصراف، وقال إنه سيستدعي لها سيارة أجرة لتوصيلها الى الفندق، استاءت مادلين لاقدامه على

إنهاء هذا اللقاء، ولكنها لم تشأ أن تكشف له عن شعورها. وقال لها ماروك إنها ستخوض مغامرات أخرى فيما سيأتي من أيام. ولكنها ردّت عليه في حدّة قائلة:

«إنني لا أتطلع الى المغامرات، وفي استطاعتي العثور على سيارة أجرة بنفسي».

«حسناً... كما تشائين».

وبدا لها أنه متعجرف مثلها تماماً، فهو لم يبد، أثناء هبوطها بمصعد البرج، اية بادرة تشير الى رغبته في أن يراها مرة أخرى، بل يبدو أنه قد نسيها تماماً. وودعته شاكرة له مصاحبتها والشرح الذي قدمه لها عن حياة الحريم، فقال لها:

«أتمنى لك كل خير يا مليحة، وربما نلتقي في لندن يوما ما».

«وعندئذ سأرافقك لكي تشاهد كل شيء في المدينة...»

ولكنه ابتعد عنها قبل ان تكمل كلامها، وسار في الاتجاه المضاد لطريقها، وأخذت أحلامها تتلاشى مع كل خطوة من خطواته. وبدأت تعيد نفسها الى التعقل، إذ كيف يؤثر فيها رجل قابلته لأول مرة بعد ظهر اليوم؟ واستقلت سيارة أجرة وقدمت لسائقها عنوان الفندق.

شعرت مادلين بود نحو ماروك بك، بل تكن له شيئاً أكبر من مجرد الود. ولاحظت أنه ينظر اليها بطريقة محببة ومثيرة، برغم أن هذا كان يسبب لها حرجاً. وكانت تتمنى أن تراه مرة أخرى لكي تتأكد من أن شخصاً ما قد أبدى نحوها شيئاً من العطف الذي حرمت منه منذ الصغر. وسالت دموعها على خديها من شدة الانفعال، ولكنها عندما وصلت الى الفندق أسرعت بتجفيف دموعها، ونزلت من السيارة لتدخل الفندق وهي مرفوعة الرأس.

٢ - جميلة جداً جداً!

توجهت مادلين مباشرة إلى قسم الاستقبال بالفندق لأخذ مفتاح غرفتها، ولكنها فوجئت بموظف الاستعلامات يخبرها أن إقامتها في الفندق قد انتهت، وأنها هي والسيدة أديناي سيطيران إلى أنقرة، وسألها عن السبب في عدم مرافقتها للسيدة أديناي. ولما أبلغته مادلين، وهي في حيرة، بأنه لابدّ وأن يكون قد أخطأ لأن السيدة أديناي أمضت اليوم بصحبة بعض الأصدقاء، أكد لها أن السيدة أديناي عادت إلى الفندق عقب فترة الغداء، وهي في غاية الاضطراب، ودفعت حساب الفندق وأخذت كل حاجياتها بما في ذلك حقيبة مادلين أيضاً وجواز سفرها، وأنه تم تأجير غرفة مادلين لنزيل آخر! فقالت مادلين وهي خائفة:

«ولكن لا يمكنها أن تفعل ذلك!»

وأحست مادلين بجفاف في حلقها من شدة الاضطراب، ولكنها قالت لنفسها إنه لا يجب أن يستبد بها الذعر، فلابد أن يكون هناك تفسير منطقي ومعقول لهذا الموقف! فاورسولا أديناي هي آخر شخص يمكنه أن يترك شخصاً آخر ضائعاً في بلد أجنبي بلا مال أو وسيلة تمكنه من الرحيل. وطلبت مادلين مقابلة مدير الفندق، فربما

تكون السيدة أديناي تركت معه عنواناً تلحق بها عليه.

وتأخر مدير الفندق فترة طويلة قبل أن يحضر، مما جعل مادلين، مع مجيء المساء، تشعر بالحرج الشديد وهي ترى نزلاء الفندق ارتدوا ملابس المساء، في حين أنها ما زالت بالملابس التي خرجت بها في جولتها الصباحية، واعتقدت أن الجميع يرقبونها. وعندما حضر مدير الفندق أبلغ مادلين أنه لم يصادف مثل هذا الموقف في فندقه من قبل، واستفسرت منه عن العنوان الذي تركته معه السيدة أديناي، فأجابها بأنها لم تترك أي عنوان، وأعرب عن دهشته الشديدة لتصرف السيدة أديناي التي اختفت ولم تترك حتى جواز سفر مادلين.

وأحست مادلين بأن ساقيها لا تقويان على حملها، فجلست وهي تقول:

«إنه لأمر يدعو إلى السخرية!»

وقال مدير الفندق:

«لا بدّ من الاتصال بالشرطة التي سوف تتولىّ أمرك، ولكن الشيء المؤكد هو أنه لا يمكنك البقاء هنا بلا مال أو جواز سفر».

وقالت مادلين في حسرة:

«وبلا ملابس أيضاً!»

«لا شك ان السيدة أديناي مجنونة! فماذا ظنّت أنك فاعلة؟ إنني أسف جداً لحالك يا آنسة، ولكنك تعلمين أنه يستحيل بقاؤك في الفندق!»

فردّت عليه مادلين في ضجر:

«إن كان هذا رأيك، فهل هناك ضرورة للاتصال بالشرطة؟»

«وهل هناك حل آخر؟ إنهم يستطيعون التحقق من المكان الذي توجهت

إليه في أنقرة، إن كانت فعلاً قد ذهبت إلى هناك، إنني لست مسؤولاً عن هذه الكارثة! ولابدّ من حماية الفندق...»

ولما سألها المدير عما إذا كانت تعرف شخصاً آخر في اسطنبول، أجابته بأن شقيق زوج السيدة أديناي موجود في اسطنبول، ولكنها لا تعرف عنوانه، إلا أنها علمت أنه يحاضر في جامعة البوسفور، ورجته أن يستفسر من الجامعة عن محل إقامته، فتهللت أسارير مدير الفندق ووعدها بأن يبذل قصارى جهده، برغم أن اليوم عطلة، وطلب منها ألا تقلق.

وعندما تأخر المدير في الرجوع إليها أخذ اليأس يدب في نفسها، وراحت تفكر بزنزانات شرطة اسطنبول... وفي تلك اللحظة حضر المدير وأسارير وجهه منبسطة، وأبلغها بأنه حصل على العنوان المطلوب، وأنهم في الجامعة كانوا مترددين في إعطائه العنوان، ولكنهم عندما علموا بورطتها رغبوا في تقديم المساعدة، وأبلغوه بأن في استطاعتها الاقامة في منزل السيد أديناي إلى أن يتم العثور على السيدة أديناي في أنقرة. وسارع بتوديع مادلين حتى الطريق الذي كان يسوده الظلام، والرياح الباردة تلفح ذراعيها العاريتين مما جعلها ترتعد، ودهشت مادلين عندما اكتشفت أن السيد أديناي يعيش في الجزء الآسيوي من المدينة. وقد أبلغها مدير الفندق وهو يسعى للتخلص منها وإخراجها من الفندق، أن عليها أن تستقل العبّارة البحرية إلى اسكودار عند جسر جالاتا مقابل بضعة بنسات، وسيكون الأمر سهلاً جداً بالنسبة إليها.

كانت المسافة إلى الجسر أطول مما تصورت، وهو أحد جسرين يمتدان عبر القرن الذهبي ويوصلان بين القسمين الاوروبيين القديم والجديد

بالمدينة، وقد أخذت العبارات تنشط على جانبي الجسر.

ووجدت مادلين إغراء بالتوقف على الجسر للحظة كي تشاهد انعكاس صورة الهلال المتلألئة على سطح الماء أسفل الجسر. إن الهلال، كما اعتقدت مادلين، هو رمز للمدينة، فقد كانت اسطنبول على نحو ما مركزاً للعالم الاسلامي لعدّة قرون. واعتقدت مادلين أن الهلال أصبح جزءاً من العلم التركي ومن أعلام الكثير من الدول الاسلامية، لأنه عندما حاول الفرنجة يوماً ما احتلال المدينة تحت ستار الظلام فإن القمر الوليد، وهو الهلال، انعكس نوره على أسلحتهم المعدنية مما كشف مواقعهم، وبذلك أمكن إنقاذ المدينة. ويعلو الهلال اليوم هو والنجوم مآذن المساجد في اسطنبول القديمة.

ولم تستطع مادلين التوقف طويلاً على الجسر بسبب الرياح الباردة، ووجدت نفسها تندفع وسط الجموع العائدة إلى ديارها، وضمت حقيبة يدها إلى جسدها لكي تعطي نفسها إحساساً بالدفء، ولأنها كانت تخشى أن تفقدها هي الأخرى مثلما فقدت كل شيء.

وشعرت برذاذ المطر يبلل وجهها، فسارعت بالعدو لمسافة قصيرة حتى وصلت الجسر، وهناك استقلت العبارة بعد أن انتظمت في طابور طويل، ولم تجد لنفسها مكاناً في داخل العبّارة تلتمس فيه الدفء، فاضطرت للصعود إلى السطح. وأخذت تتطلع إلى بحر مرمرة الذي يلفه الظلام، وهو يضيق حتى عنق مضيق البوسفور، الذي يصل بين بحر مرمرة والبحر الأسود، مبتعداً بضعة أميال إلى الشمال. وكان البرد قارساً، مما جعل مادلين تدلّك ذراعيها لكي تدفع الدم إلى عروقها، ولاحظت أن عيون بعض النساء ترمقها من تحت أغطية الرأس التي لا تغطي الوجه، وإن كانت تكسب من ترتديها إحساساً

بالاحتشام.

وعندما وصلت العبّارة، وقفت مادلين في الطريق والمطر يبللها، وأحست بأنها لم تكن في حياتها أتعس مما هي عليه. كانت نظرتها إلى البلدان الخارجية أنها تنعم بالشمس الدافئة، إلاّ أن الوضع يختلف بالنسبة لاسطنبول، شأنها في ذلك شأن نصف الكرة الشمالي حيث يقترب فصل الشتاء بسرعة.

وسمعت صوت صبّي يسألها عما إذا كانت تريد دليلاً، وقد ظنها أمريكية فأوضحت له أنها انكليزية، وأطلعته على العنوان الذي معها. وتبعته مادلين وبدت عن بعد أضواء الجانب الاوروبي لاسطنبول، في حين راحت السفن تذرع المضيق الذي يفصل بين القارتين جيئة وذهاباً. وتوقف الصبي وهو يشير إلى أحد المنازل قائلاً:

«هذا المنزل الذي تقصدينه».

ولكن الصبي تملّكه الاستياء عندما وجد المنزل مهجوراً، وانتقلت مشاعر الاستياء منه بسرعة إلى مادلين، خاصة عندما أخذ يطرق الباب بدون أن يجيبه أحد، وأخذت دموعها تنهمر وهي تصيح قائلة:

«لابد أن أدخل هذا البيت!»

وحاول الصبيّ أن يهدىء من روعها، وربت على كتفها وأشار إليها بأن تنتظر عودته. ولم يكن أمامها سوى الانتظار وهي تشعر بدموعها، الشيء الدافىء الوحيد المتبقي لها في هذا العالم المتجمد.

وعاد الصبيّ وبرفقته سيدة تركية اعتذرت لها وفتحت باب المنزل، وهمس الصبي لمادلين بأن تلك السيدة تدعى محرماه فأعطته مادلين بعض النقود وانصرف. وعندما دخلت سألت السيدة عما إذا كان هذا منزل السيد أديناي فأومأت إليها بالايجاب، وقدمت إليها

نفسها قائلة:

«محرماه!»

فقدمت مادلين نفسها وهي تحاول الابتسام قائلة:

«مادلين كارفيل».

فهزت المرأة رأسها بارتياح قائلة:

«مادلين خانم!»

وابتسمت المرأة وأخذت تضيء الأنوار في طريقها، وتبعتها مادلين إلى غرفة الاستقبال. ولم تبد تلك السيدة أية دهشة لقدوم امرأة غريبة لزيارة مخدومها، ولكن إن كان ما قالته لها أورسولا صحيحاً، فإنه يبدو أن هذه السيدة اعتادت على تلك الزيارات. وتمنّت مادلين أن يظل السيد أديناي غائباً، ولو لبعض الوقت ريثما تعود إلى حالتها الطبيعية.

واقتربت السيدة من مادلين وربتت على كتفها برفق، فتبعتها مادلين إلى أعلى، وازداد إحساس مادلين بالحرج عندما أخذت السيدة ترشدها إلى مكان الحمام وغرفة النوم المخصصة لها، والتي توقعت أن تبيت فيها مادلين.

ولاحظت مادلين أن سلم المنزل من الرخام مما يشير إلى البذخ والثراء، كما أن الأثاث، برغم أنه رخيص وقديم، إلاّ أن معظمه من التحف القديمة التي تتماشى مع الخطوط الهندسية للبيت. وهذا هو مبعث القلق والتساؤل. فكيف يتسنى للسيد أديناي، وهو محاضر جامعي، أن يحيا هذه الحياة المرفهة؟ ومن أين له بالمال الذي ينفقه على تلك الحياة؟

ظلّ هذا القلق المتزايد يلازمها لفترة طويلة بعد أن غادرت

محرعاه البيت وتركتها وحدها. وأحسّت مادلين بالوحدة بعد انصرافها، وراحت تتجوّل في غرف الطابق السفلي محاولة الايحاء لنفسها بأنها ليست غريبة، ولكنها لم تفلح في جلب هذا الشعور لنفسها. وتوجهت إلى المطبخ وأعدت لنفسها طعاماً، وكانت تلك هي أول وجبة تتناولها منذ ذلك الوقت التعس الذي تناولت الشاي فيه مع ماروك بك في أعلى برج جالاتا. وأدركت عندئذ أن ما كانت تحس به من آلام في المعدة لم يكن سببه توترها العصبي وإنما الجوع الشديد.

وبمضي الوقت أخذت تسترد ثقتها بنفسها وبدأت تشعر بالابتهاج، فمن الواضح أن السيد أديناي مازال بعيداً عن هذا المكان، وأنها تستطيع المبيت الليلة بطولها وحدها في البيت. ولكنها أحسّت برغم ذلك أن السيد أديناي ربما يستاء لأنها بالغت في تصرفاتها وكأنها في بيتها. وبرغم هذا فإنها اتجهت إلى غرفة الاستقبال وجذبت كرسياً إلى جوار النافذة، وجلست في الظلام وهي تحاول أن تتخيّل المنظر الذي تطل عليه النافذة في النهار، وعندما ملّت أضاءت النور، وأخذت تتجول محاولة اكتشاف مفاتيح شخصية أديناي.

نظرة واحدة إلى رفوف الكتب أوضحت لها أنه لا يشارك زوجة أخيه الميول إلاّ فيما قلّ.

وحرّكت مادلين بصرها عن الكتب إلى السجادة الجميلة التي تعد قطعة من الفن التركي، وراحت تفكر كم يكون عمرها وعما إذا كانت مشغولة يدوياً؟

ونظرت إلى ساعتها فوجدتها تقترب من الحادية عشرة مساء، وأحست بحاجتها الشديدة للنوم. فصعدت إلى أعلى ودخلت غرفة النوم، وفتحت خزانة الملابس لتبحث عن رداء أو بيجاما من بيجامات السيد

أديناي لترتديها، فاستقر رأيها على رداء معين، وقبل أن تغلق خزانة الملابس متوجهة إلى الحمام، فوجئت برداء نسائي خليع لا يصلح إلا للراقصات، ولم تكن في حاجة إلى خيال لتدرك السبب في وجود هذا الرداء في خزانة الملابس الخاصة بالسيد أديناي.

وسارعت مادلين بأخذ حمامها وقد استبدّ بها الغضب الذي أشعلته روح الفضلية في نفسها بسبب ما اكتشفته في خزانة الملابس، فإن كان هناك دليل مطلوب لاثبات صحة رأي أورسولا أديناي في شقيق زوجها، فإن هذا وحده يكفي. لماذا لا تصعد إلى أعلى لتفقد غرف النوم الأخرى؟ ترى ما الذي ستجده هناك؟ إنها ربما تجد أورسولا هناك فتسرع بمغادرة هذا البيت قبل أن يرجع صاحبه، من رحلته الريفية.

وتمددت مادلين في حوض الاستحمام، وأخذ الماء الدافئ يهدئ من حدّة غضبها، وأقرّت بأنها بدأت تشارك مضيفها ميله للحياة المترفة بغضّ النظر عن رأيها في أخلاقياته. وكان الحوض متسعاً ومصنوعاً من الرخام، والمناشف جافة ودافئة وكبيرة، ولم تسترح مادلين في البداية لتلك المرايا التي تغطي معظم جدران الحمام ولكنها بدأت تتقبلها.

كان السرير يتسع لشخصين، وفاخراً بطريقة لم تألفها وهي التي اعتادت النوم على سرير في بيت أبويها عرضه قدمان وطوله ستة أقدام. وغاص جسمها في السرير وهي تتمنى ألاّ تستيقظ من فرط الراحة التي شعرت بها.

واستيقظت أخيراً وبدأت تتنبه وتتذكر المكان الذي هي فيه. وسمعت ضجة وصوتاً نسائياً مرحاً ثم قهقهة، عاد إذاً السيد أديناي إلى بيته مثلما توقعت.

ولكن الضحكات النسائية توقفت وتحولت إلى استعطاف ثم ساد الصمت من جديد. وأصيبت مادلين بالذعر وحدثتها نفسها بأن تنزل لنجدة الفتاة التعسة التي وقعت في براثن السيد أديناي.

وتمنّت مادلين لو أنها لم تستيقظ. فما الذي ستفعله الآن؟ فهي لا تستطيع أن تنزل إلى الطابق الارضي لتقطع عليهما ما هما فيه، كما أنها لا تستطيع أن تظل جالسة فوق هذا السرير نظراً لأن الدلائل كلها تشير إلى أنه قد يحتاج هذا السرير في أية لحظة. وتخيلت مدى الغضب الذي سينتابه عندما يكتشف وجودها في بيته بدون أن يدعوها أحد، وبدون إبلاغه بهذا، وأصابها الذعر والخوف وهي تظن أنه سيجعلها تحمل أمتعتها وترحل.

وسمعته يتحدث بالتركية بطلاقة بدون أن تفهم منه كلمة واحدة، ثم استطاعت أن تميز صوت محرماه وهي تتحدث إليه، ثم قال لها بالانكليزية بضع كلمات فهمت منها أن محرماه ربما أبلغته بوجودها غير المرغوب فيه، ولكنها دهشت عندما لاحظت أنه لم يغضب. وسمعته يضحك وأعقب ذلك صوت الفتاة وهي تئن بشدة وتوبخه وتستعطفه لشيء لا تعرفه مادلين.

وتحدّثت محرماه بعد ذلك بصوت مرح، ولم يعترض الرجل، ثم سمع باب المنزل يفتح ويغلق بشدة. وساد عندئذ صمت مخيف، وأطبقت مادلين يديها وتحركت لتنزل من فوق سريرها، ولكن الوقت جاء متأخراً جداً فقد سمعت خطواته وهو يصعد السلم في خفة وسرعة. وكاد الدم يتجمد في عروقها وهي ترى خياله أثناء سيره في الممر، إنه ليس طويلاً مثلما تخيلته من قبل بل إنه أقصر من السيدة أديناي، وهو يشبه في الطول والحجم ماروك بك التركي الذي

التقت به بعد ظهر اليوم السابق، وأخذ قلبها يسرع في الخفقان عندما تذكرت ماروك بك، وقررت أن توقد المصباح، ولكنها غيرت رأيها، وضمت ركبتيها إلى صدرها.

وظهر الرجل أمامها في ضوء المصباح العلوي مبتسماً، وأخذ كل منهما يحملق في الآخر، وفغرت مادلين فمها وراحت تبتلع لعابها، إنها لابدّ دخلت بيتاً آخر غير الذي تقصده، وهذا الذي يقف أمامها ليس شقيق زوج أورسولا أديناي، ولا يمكن أن يكون!

وقالت هامسة:

«ماروك بك؟»

فانحنى رأسه تحية لها، وعيناه تنظران باهتمام إلى الروب الخاص به الذي ترتديه مادلين، فجذبت مادلين الروب حتى أعلى عنقها وشدت الحزام حول وسطها بقوة حتى كاد يشطرها إلى نصفين، وقالت في تردد:

«آمل ألاّ يضايقك هذا؟»

وارتسمت على ثغره ابتسامة عريضة وهو يقول لها:

«حسناً، حسناً، مليحة خانم!»

تراجعت في جلستها، وقالت له:

«وجدته في خزانة ملابسك»

فهز رأسه قليلاً وقال:

«هذا أمر يؤسف له، ولكنك تبدين برغم ذلك في صورة تبعث على الفرح وأنت ترتدينه، أليست لديك أية ملابس بدلاً من استيلائك على ردائي؟»

«ملابسي كانت مبتلة».

فقال لها وعيناه الرماديتان يزداد بريقهما وهو يحملق فيها:

«لست مستاء يا مليحة».

«سوف أغادر هذا البيت».

وتجاهل كلامها وسألها قائلاً:

«كيف عثرت على اليالي الخاصة بي؟»

فاختلست نظرة إليه وقالت له:

«لا أعلم ما معنى يالي».

« يالي هي الفيلا المقامة على الشاطىء».

والتقت عيناها بعينيه فاحمرت وجنتاها وقالت له:

«أوه، وأنا لا أعرف أيضاً معنى كلمة مليحة».

«معناها بالتركية جميلة، وأنا أعتبرك جميلة جداً».

وأحسّت مادلين بحلقها يجفّ فجأة، وجذبت الرداء نحوها بحركة دفاعية مما أثار ضحكه فقال لها:

«إنك سمراء، وغامضة، وجميلة جداً جداً».

٣ ـ الخوف من الهوى

لم يسبق لأحد أن قال لمادلين وجهاً لوجه إنها جميلة. وراحت تفكر في تلك المجاملة في حين ساد الصمت بينهما. جميلة! هل يمكن لشخص مثل ماروك بك ان يتصوّرها جميلة! أكـان هذا من المبالغات الكلامية؟ والأسوأ أنه ربما قال للفتاة التي كان يحدثها في الطابق السفلي إنها جميلة هي أيضاً. ومن يعلم كم عدد الأخريات اللواتي قال لهن ذلك؟

وكرّر سؤاله لها قائلاً:

«كيف تمكّنت من العثور على منزلي؟»

وبرغم حركة جسمه المتراخية فإن هذا لم يخف مدى ما يتمتع به من قوة ورجولة. وكان من المستحيل ألا تنتبه إلى نظراته البراقة، كما كان من المستحيل ألا يكون رد فعلها متمثلاً في حالة من الاضطراب العاطفي أخذت تنتابها بشدة. وأجابته قائلة:

«أخطأت البيت الذي أقصده».

فرفع حاجبيه في دهشة وقال لها:

«بل على العكس هذا هو البيت المقصود تماماً»

وابتسم ابتسامة خفيفة واتجه نحوها ليسألها:

«هل تعقبتني بعد ظهر أمس؟»

فهزت رأسها وهي ترقبه في قلق. وجلس قربها فوق السرير فابتعدت عنه بسرعة، فقال لها:

«أنت خائفة يا مليحة؟ ليس ثمة ما يدعو لهذا!»

واعتقدت أنها يجب أن تخافه، وراحت تبحث عن الكلمات المناسبة لمنعه من الاقتراب منها، وأحست وهي قريبة منه بأن له تأثيراً طاغياً عليها، ولم تعد تدري كيف يمكنها التصرّف لمواجهة هذا الموقف.

ولمس خدّها بأصابعه في خفة، بينما راحت هي تقول له هامسة:

«اعتقدت انه منزل السيد أديناي».

وتوقفت يده عن الحركة فترة قبل أن يحرّك أصابعه نحو فكها، ثم استقرت عند ياقة ردائها، ثم جذبها بقوة نحوه بدون أن تبدو منها أي مقاومة واندفعت الدماء إلى عينيه تصبغها بلون أحمر ناري، فهمست قائلة:

«أرجوك!»

فسألها وهو يرفع قبضته عن ياقة الرداء، ويمر بأصابعه على عنقها:

«ألم يلقنك أحد من قبل درساً في العناق؟»

فردّت عليه مادلين قائلة:

«كلا، ولن تلقنني أنت هذا الدرس!»

فأجابها بضحكة واقترب منها مرة أخرى مما جعلها تستلقي على الوسادة، وأثارت حركته الخاطفة استجابة في داخلها. وكان مسلكه معها يتسم بروح السيطرة، وأحست بالخجل وهي تكتشف ميلها إلى هذا النوع من التصرّف، ولكنها لن تسمح له بالاستمرار.فهو لم يعبأ بمعرفة رأيها أو يهمه ما إذا كانت تشاركه عواطفه أم لا، ولكن هذه

المسألة ذات أهمية بالنسبة إليها لأنها اعتادت على مبادىء وقيم سلوكية معينة. وخلّصت نفسها من ذراعيه وابتعدت إلى الجانب الآخر، جاثية فوق ركبتيها اللتين كادتا تتداعيان تحتها، وقالت له إنها لا تقبل هذا. فنظر إليها بسخرية وسألها:

«لماذا جئت إذاً إلى هنا؟»

«لم آت من أجل هذا، جئت بحثاً عن السيد أديناي، مارك أديناي، أبلغت بأن هذا بيته. فكيف اعرف انك تقيم هنا؟ ما كان يجب أن تصرف صديقتك!»

ألقى نظرة مباشرة إلى الروب الذي ترتديه وقال بلهجة فيها معنى التسامح ولكنها محببة:

«طبعاً، صرفتها عندما علمت أنك هنا في انتظاري».

«لم أكن في انتظارك، بل لم أكن أعرف أنك...»

«يمكن معالجة هذا الأمر!»

وأدارت ظهرها نحوه لانها لم تعد تحتمل مواصلة النظر إليه وهو مستلق فوق السرير في حالة استرخاء تام، في حين كانت مشاعرها تغلي. ليس من حقه أن يثق في نفسه إلى هذا الحد!

«كوني تناولت معك الشاي لا يعني أنني أرغب في قيام أية صلة بيننا».

قالت ذلك وهي معتقدة أنها أحدثت التأثير المطلوب لديه، ونظرت إليه في عصبية واستخفاف، إلا أنه نظر إليها بعدم تصديق مما جعلها تشيح بوجهها عنه وتقول له:

«إن أخبرتني بالمكان الذي يقيم فيه السيد أديناي، فسوف أترك بيتك فوراً».

«ما الذي تريدينه من مارك أديناي؟»

ردت وقد سرت رعدة في بدنها:

«لا أعتقد أن لك شأناً بهذا!»

«سوف تبلغينني بكل شيء!»

وتذكرت من لهجته التي تفتقر إلى المرونة أن رأيه في النساء يختلف عن الرأي الذي تعرفه منذ نشأتها، وعبر عن رأيه هذا بطريقته التي عاملها بها، ومن يدري ماذا كان يمكنه أن يفعل معها أيضاً؟ من غير الانصاف أن تكون له مثل هذه الجاذبية الشديدة في نفس الوقت!

وردت عليه بصوت خفيض:

«إنه شقيق زوج السيدة التي أعمل معها».

«هل أرسلتك للبحث عنه؟»

فهزت مادلين رأسها قائلة:

«إن أحداً لم يعطها عنوانه».

وابتعد عن السرير، واتجه ليقف إلى جانبها، ووضع يده على أحد كتفيها، وجذبها نحوه ممسكاً ذقنها باصبعين، مما جعل رأسها يرتفع إلى أعلى. ولم تكن نظراته تنم عندئذ عن أية تعبيرات ساخرة، وقد أحست مادلين بالخوف الشديد منه، وسألها قائلاً:

«ولكنهم أعطوك أنت العنوان، أليس كذلك؟»

ابتلعت ريقها بدون أن تتمكن من الافلات من قبضته، وقالت له إن مدير الفندق اتصل بالجامعة، فلما سألها عن السبب أجابته بقولها:

«عندما عدت إلى الفندق وجدت السيدة أديناي قد رحلت وأخذت كل متاعي معها».

وسالت دموعها فوق خديها أسى على نفسها، وحاولت جاهدة أن

تفلت من قبضة أصبعيه على ذقنها ولكن بدون جدوى، وتوقعت أن يشفق عليها، ولكنها لم تلمس منه أية شفقة، بل أخذ أصبعاه يغوصان في لحمها وهو يرغمها على أن تلتقي نظراتها بعينيه، ثم قال:

«رحيلها ليس بالخسارة الكبيرة!»

«أنا التي خسرت، لقد تسببت في مجيئي إلى هنا، ورحلت بدون أن تترك لي أية رسالة، وأخذت معها كل شيء، ملابسي وحتى جواز سفري! قال مدير الفندق إنها لابدّ ذهبت إلى أنقرة، ولكن يبدو أنها سافرت إلى القمر!»

وبكت ثم صاح قائلاً:

«أكره الذين يبكون طوال الوقت».

«تماماً مثل الذين يقيمون علاقات ويحكون للناس عنها».

وراحت تبحث عن منديل تجفف دموعها، فلما لم تجد جففتها بظهر يدها، فسألها:

«هل انتهيت من هذا؟»

فابتسمت بعد جهد وأومأت برأسها قائلة:

«عادة لا أبكي أبداً! إنني لا أفهم ما الذي جرى لي! لابدّ أن أكون متعبة أو بي شيء ما، إنني أسفة».

«أليس من الأفضل أن تبحثي عن السيدة أديناي بدلاً من البحث عن مارك أديناي؟»

«وكيف أستطيع ذلك؟ لا يمكنني البقاء في الفندق، أبلغت بهذا في وضوح! وليس لدي المال الكثير، وقد أخذت معها جواز سفري!»

وعادت نظرات السخرية إلى عينيه، مما جعلها تعتقد بأن الروب الذي ترتديه، ليس بالرداء المناسب لها لأنه صمم لشخص أكبر حجماً

منها، وأضافت قائلة:
«لم أكن أعلم أن هذا منزلك!»
فرد عليها بجفاف قائلاً:
«خاب أملك، أنا مارك أديناي».
«مستحيل أن تكون مارك أديناي!»
وبدأت تستوعب الموقف، وتستجمع أفكارها المشتتة بعد تلك المفاجأة، وقالت له بلهجة فيها معنى الاتهام:
«ولكن المرشد السياحي كان يناديك باسم ماروك بك، فأين إذاً أورسولا إن كنت أنت مارك أديناي؟»
«يا إلهي، لا أعرف أين هي، وبالتأكيد إن هذا لا يعنيني!»
«ولكن لابد أن تعرف أين هي! إذ لا يمكنها أن تتركني ضائعة هكذا في اسطنبول بلا مال أو وسيلة تمكنني من العودة إلى الوطن، لابد أن تبحث عنها!»
فضحك مما جعلها تشعر بالغيظ وقال لها:
«لن أبحث عنها، أمضيت الأسبوع الماضي في عدم استقرار، وأنا أحاول التهرب منها».
«طبعاً بتظاهرك بأنك شخص آخر!»
فهز كتفيه استخفافاً وقال:
«ليس هناك أي شيء مشترك يربط بيني وبين أورسولا، تزوجها أخي واشترى حصتي في الشركة التي تملكها الأسرة حتى يرضيها، وعندما مات ورثت هي كل شيء، وقد أدارت الشركة بطريقة جيدة بقدر ما أتيح لها من ضوء، وأصبحت دار أديناي للنشر تدر أرباحاً كبيرة خلال السنوات القليلة الماضية، وإن كانت هي لا تجد الآن أن المال هو

كل شيء، وأخذت تبحث عن السلطة والنفوذ أيضاً، فإن هذا ليس بالأمر الذي يعنيني!»
وشعرت بالأسف نحو زوجة أخيه، وراحت تتلفت حولها بحثاً عن حقيبة يدها لاخراج منديلها منها، فأشار مارك أديناي إلى مكانها وقال لها إن كيس نقودها هناك، وأنه يبدو غير كاف مثل ملابسها، ففسرت ذلك بسخرية قائلة إن هذا هو السبب الذي جعل أورسولا تأخذ جواز سفرها!
فرد عليها قائلاً:
«هذا أمر واضح جداً، فأنا إذاً كمن يأمن لحية رقطاء بأن تتعهد طفلاً رضيعاً».
فقالت له:
«كلفني مكتب دار النشر في لندن بالسهر على راحتها، وكل أعضاء المكتب يحبونها».
«إنهم متملقون أذلاء!»
«ألا تميل إليها بالمرة؟»
«لا أقول هذا، ولكنني أفضل أن أتركها لشأنها، فأنا لا أميل للنساء الطموحات».
فقالت مادلين في تحدّ:
«ولكنني لا أجدهن أسوأ من الرجال الطموحين».
«لأن طموحك يتجه اتجاهاً مختلفاً، فأنت تتطلعين إلى أن يصبح لك حبيب، ولن يخطر ببال أورسولا أن مهمتها في الحياة هي أن تسعد إنساناً ما وتسير خلفه في الحياة. لا أميل إلى النساء اللواتي يدفعن أزواجهن إلى التكالب على ماديات الحياة للحصول على المزيد من

متاع الدنيا، إلى أن يلقوا المنيّة وهم في مقتبل العمر».

وقال لها إن زوجة أخيه جاءت إلى تركيا لكي تحمله على العودة معها إلى الولايات المتحدة ليعمل لحسابها، ولكن لن يقبل هذا لأنه ليس للبيع!

فقالت له مادلين عندئذ إنها تحتاج إلى أشياء كثيرة، وهذا الموقف لن يحل مشكلتها فرد عليها بقوله:

«أنت مسكينة يا مليحة!»

«لا تدعني بهذا الاسم!»

«يجب أن يتملكك الزهو بذلك. بماذا تريدنني أن أناديك؟»

« مادلين، مادلين كارفيل».

«حسناً، آنسة كارفيل، يبدو أنك وقعت في براثن الذئب الكبير لهذه الليلة على الأقل».

وابتسم فجأة قائلاً:

«من الذي أسماك مادلين؟ أعتقد أنّ مليحة تناسبك أكثر».

«ذلك لأنك مغرور و... و...»

واحتبس صوتها وهي ترمقه بنظرة إدانة.

«نعم، وماذا أيضاً؟»

«وبغيض تماماً، وأعتقد أن دار أديناي للنشر يمكنها أن تعمل بصورة أفضل كثيراً بدونك!»

«مهلاً، مهلاً، ليس هذا ما كنت تريدين قوله، أليس كذلك؟ إنك على حق فيما قلته، فلقد استمتعت لعناقك، وربما اعانقك مرة أخرى!»

وأحست مادلين بأن ركبتيها عاجزتان عن حملها لأطول من هذا، فجلست على السرير وهي تقول له:

«حقاً. ليس هذا ما كنت أريد قوله. ما المواد التي تحاضر عنها في الجامعة؟»

«الفن المعماري والفنون الجميلة، وهذا هو السبب الذي جئت من أجله إلى اسطنبول، فأنا أعد رسالة جامعية عن الفنان المعماري سينان الذي ينتمي إلى الامبراطورية العثمانية، إن كان هذا مما يهمك».

فهزّت رأسها وتحكمت في انفعالاتها وقالت له في حدّة:

«نعم يهمني! حدثتني عنه أثناء زيارة جناح الحريم، هل هو فنان مشهور جداً؟»

«جداً، ولحسن الحظ الحرب لم تدمر كل أعماله مثلما فعلت القنابل التي تساقطت فوق لندن بأعمال كريستوفر رين».

وقالت له مادلين إن السيدة أديناي أبلغتها بأنه سيكون في عطلة في الريف. فقال لها إنه عاد من العطلة اليوم فقط، ولكن السيدة أديناي أخطأت في شيء واحد لأنه ليس من النوع الذي يحكي عن علاقاته. فاحمرت وجنتا مادلين وتألمت لقوله هذا وسألته قائلة:

«أتقصد أنك لن تبلغها بأنك عانقتني؟»

فجلس إلى جوارها على السرير وراح يزيح خصلة من شعرها عن وجهها وقال لها متعمداً أن يغيظها:

«الأمر يستحق التحدث عنه!»

فتنهدت مادلين قائلة:

«قد لا تجد الفرصة لتحدثها عن أي شيء، فربما تكون اختفت إلى الأبد. ما الذي سأفعله الآن؟»

فقال لها إن في استطاعتها أن يعودا معاً إلى وطنه، وراح يهدىء من روعها، فأحست بالاطمئنان لكلامه، ولم تدر السبب الذي جعلها

تصدقه. وعندما أشارت إليه برغبتها في النوم قال إن هذا سريره ويمكنها أن تشاركه إياه أو تبحث لنفسها عن غرفة نوم أخرى في المنزل، فسارعت بمغادرة الغرفة... وصعدت إلى الطابق العلوي، وتمكنت بصعوبة شديدة من فتح باب الغرفة، ولكنها وجدت السرير بدون أغطية، والجو في هذا الطابق أشد برودة من الطابق السفلي، فنزلت إلى الطابق السفلي وأحضرت ملاءات وبطانيات وصعدت بها، وقامت بإعداد السرير القديم الذي يكاد ينوء تحت ثقل جسمها من شدة القدم. ولاحظت النقوش على جدران المنزل الذي كان يملكه أحد الباشوات الأتراك، وقالت لنفسها إن هذا المنزل، وخاصة هذا الطابق منه، يلائم فعلاً ماروك بك الذي أدهشها أنه أمريكي وليس تركياً كما كانت تظن من قبل.

وكاد قلبها ينخلع عندما تذكرت كيف كان ينظر إليها، وحاولت بدون جدوى التفكير في شيء آخر، وساعدها على ذلك منظر سفينة كانت تشق طريقها للخروج من بحر مرمرة عن طريق مضيق البوسفور متجهة إلى الموانيء الروسية المطلة على البحر الأسود، ووسط الجلبة التي أحدثتها السفينة استغرقت مادلين في النوم.

وفي الصباح لم يكن الجو ممطراً، ارتدت مادلين ملابسها الصباحية وهي تتساءل عما إذا كان ماروك أديناي سيعجبه ارتداء النساء للبنطلونات، واتجهت إلى غرفة الطعام منجذبة برائحة القهوة والخبز الطازج الذي حضر لتوه من الفرن. وحيّت ماروك، فسألها عما إذا نامت نوماً مريحاً، فقالت له في تردد:

«نعم، نمت جيداً، شكراً لك، وهل نمت أنت جيداً؟»

«كان يمكنني أن أنعم بنوم أكثر راحة، لولا وجودك الذي قضّ مضجعي واقتحم عليّ أحلامي، وإن كنت ستمكثين هنا طويلاً، فلابدّ أن نجد لك ملابس أخرى للنوم بدلاً من استخدام ردائي».

«لا يمكنني البقاء هنا!»

«وإلى أين ستذهبين؟»

«بإمكاني قتل السيدة أديناي، لابدّ أن يكون هناك مكان أستطيع الذهاب إليه!»

ونظر إليها ماروك في إشفاق وقال لها:

«أورسولا تجعلنا نحس بهذا الشعور من وقت لآخر، فلا تنزعجي، فسوف يصبح كل شيء على ما يرام عندما تعود، نجحت في أي حال، في العثور عليّ».

«كنت أتمنى ألاّ أعثر عليك».

فنظر إليها بأسى، في حين أخذت مادلين تصحح كلامها قائلة:

«كنت أعني فقط أنه موقف لا يبعث على الارتياح».

فقال لها بجفاف:

«لقد وجدت ما يعوضك».

«لا أظن هذا!»

كانت مادلين تفضل أن يكون تركياً غير معروف، وله بعض العذر في أن ينظر إلى المرأة باعتبارها كائناً وجد لمجرد إمتاعه. ولكن بوصفه أمريكياً فكان يجب عليه احترام تطلعها للمساواة معه... إنها لم تبدأ بعد في معرفة الوسيلة التي تمكنها من التعامل معه!

وراح يغيظها ولكن برفق مما يشير إلى أنه قد تفهم موقفها وقال لها:

«مغامرة رائعة تلك التي مررت بها، يمكنك أن تستمتعي بها إن أنت

أرحت أعصابك قليلاً. ولن يطول هذا الأمر. فلقد اتصلت تليفونياً بالسفارة الأمريكية في أنقرة، وعلمت أن أورسولا هناك، وأنها توجهت لزيارة صديق وهي في شدة القلق لدرجة أنها نسيت كل شيء آخر».

«بما في ذلك أنا!»

«أعتقد أنها يجب أن تعتذر لك عن هذا، وهي إما أن تعود خلال يوم أو أكثر، أو أن تعيد لك ملابسك وجواز سفرك وترسل لك مبلغاً كافياً من المال يمكنك من العودة إلى انكلترا. وأتوقع ان تحضر بنفسها. فبعد أن عرفت مكاني لابد وأن تغتنم هذه الفرصة الثمينة».

فرمقته مادلين بنظرة ثاقبة وقالت له:

«لا أريد اعتذاراً من أحد. ومن القسوة ألا تمد لها يد المساعدة إذا طلبت منك ذلك، فمهما كان موقفك فإنها أرملة أخيك. أما كان أخوك يرغب في مساعدتك لها؟»

«لا أعتقد أنه كان يرغب في هذا».

«ولكنها كانت زوجته!»

«وهذا لم يمنعه من التوجه في مهمة إلى فيتنام حيث لقي حتفه، وأورسولا تريد الانتقال إلى واشنطن الآن، وتريدني أن أساعدها في هذا، فهي تعلم أن لي اتصالات وأصدقاء لهم وزن. ولكنها أخطأت في اختيارها لي. فإنني عازف عن أي شيء يمكنها أن تعرضه عليّ. جاء وقت كنت أميل فيه لرأي مغاير لهذا الرأي، ولكن كان هذا قبل يوم أمس».

قال هذه العبارة الأخيرة وهو يبتسم فسألته مادلين قائلة:

«وما الذي جعل ليوم أمس تلك الميزة؟»

«لقد دخل شيء في عيني!»

وأخذ يقهقه وهو يلاحظ أنها مبهوتة لا تدرك معنى ما يقول، فأضاف قوله:

«لا عليك يا مادلين. فسوف أشرح لك هذا فيما بعد».

«نعم، ولكن ما قصة صديقها في أنقرة؟»

«هذا تطور جديد وطريف، وفي أية حال سيتيح لأورسولا شيئاً آخر تنشغل به عنا وتتركنا وحدنا! فلديّ الآن ما يكفيني ولست في حاجة إلى أورسولا لكي تدفع بي إلى الموت!»

«ولكن هذا لن يحل مشكلتي، فما الذي سأفعله؟»

فاقترح عليها مساعدته بعمله في الرسالة الجامعية التي يقوم بتحضيرها. فأبدت ترحيبها وأبلغته بأنها تجيد الكتابة على الآلة الكاتبة بسرعة ودقة، وأنها على إلمام بالاختزال. فقال لها إنها إذا بذلت جهداً كبيراً في العمل معه فلن تجد وقتاً لتفكر في حظها العاثر، وطلب منها أن تتولى تنسيق مذكراته، وأشار إلى أنها ستجد متعة لمساعدته في بحثه الذي يعده عن الفنان المعماري سينان.

واقترح عليها أن يقوما سوياً، في إطار البحث الذي سوف تساعده في إعداده، بزيارة لبعض الأماكن الأثرية، وخاصة مسجد أيا صوفيا، الذي كانت تقوم مكانه كاتدرائية جستنيان التي أدخل عليها الفنان المعماري سينان تعديلات لتحويلها إلى مسجد.

واعتقدت مادلين أنه لا يرمي من وراء زيارة تلك الأماكن الأثرية خدمة البحث الذي يقوم به، لأنه ربما يكون قد زارها مئات المرات من قبل. فقالت له:

«ليس هناك ما يدعو لأن تصطحبني إلى أي مكان، ويمكنني إعداد

مذكرات البحث بدون مشاهدة تلك الأماكن بنفسي، وفي إمكاني زيارتها فيما بعد، الآن أفضل أن أكسب نفقات معيشتي...»

فأمسك يدها في رقة قائلاً لها:

«أبعدي أشواكك ما مليحة، فلا يمكنها أن تصيبني! أريد أن أصطحبك معي، وسوف نذهب سوياً، هل اتفقنا؟»

بلعت ريقها وأجابته قائلة:

«اتفقنا».

٤ ـ شباك الحب يفتح

«أتعتقدين أنك ربما تشعرين بالبرد؟»

وجه إليها مارك هذا السؤال وهما ينزلان درجات السلم. فهزت مادلين رأسها بالنفي. كان يوماً جميلاً وهي ذاهبة للقيام بجولة في اسطنبول! مارك قد يسميها، إن أراد، جولة عمل، ولكنها بالنسبة لها بمثابة حلم يتحقق. وفضلت عدم المجادلة لأن وجوده معها سيجعل الأمور أكثر متعة. كانت تتمنى زيارة معالم اسطنبول قبل فترة طويلة من التقائها به في قصر توبكابي، وسألته:

«كيف حصلت على هذا البيت يا مارك؟ ومن الذي كان يعيش هنا في الماضي؟ وهل كانوا من المشاهير؟»

فهز كتفيه باستخفاف قائلاً:

«كان يقيم هنا أحد الباشوات المتقاعدين على ما أظن، وهنا في الطابق السفلي يوجد السلاملك حيث يستقبل الرجال أصدقاءهم الذين يزورونهم، في حين تلتزم النساء بالبقاء في الحرملك بالطابق العلوي الذي تقيمين أنت فيه. هل وفرت لنفسك وسائل الدفء في هذا المكان؟»

«نعم. أخذت معي الى أعلى عدداً من البطانيات. أحب هذا الطابق

لأنه لا يتسم بالطابع الحديث مثل بقية الطوابق، كما أحب النوافذ الشبكية، فهي تجعل المرء يحس بأنه يخلو الى نفسه بدون أن تتطفل عليه الأعين، كما أنها تتيح له في نفس الوقت أن يرى كل ما يحدث في الخارج».

وقال لها إنه سيستدعي محرماه لايقاد المدفأة حتى لا تتجمد من البرد. ودعاها للخروج فلبّت طلبه بدون تردد، لأن آخر شيء تريده هو أن تتركه ينتظر.

وسارا سوياً بمحاذاة شاطىء البوسفور للتجول في الجانب الأسيوي من اسطنبول، وشاهدا المساكن التي كان يقطنها من قبل وجهاء المدينة وأثرياؤها، وأصبحت اليوم في حالة يرثى لها، كما مرا على مساكن الفقراء الخشبية وقال لها مارك ان محرماه تقيم في أحد تلك المساكن، وأنه لم يعد مسموحاً لأحد أن يقيم مساكن خشبية في اسطنبول بسبب كثرة الحرائق التي اندلعت فيها.

وسألته مادلين عما دعاه لطلاء مسكنه. فقال لها إنه يستأجره ويسدد الايجار سنوياً، وحصل على موافقة المالك لطلاء المسكن بطلاء واق من النار، وسألها إذا كان يعجبها فأومأت برأسها قائلة:

«اعتقدت ليلة أمس أن إحدى السفن المارة بالمضيق سوف تقتحم النافذة!»

«إنهم يروون قصصاً عديدة عن السفن التي فعلت هذا بنوافذ المساكن».

واتجها الى المرفأ واستقلا قارباً عبرا به مضيق البوسفور الى الجانب الأوروبي من اسطنبول. وعند وصولهما استقلا الباص ودهشت مادلين لأن مارك عرف بحماسة قوية، مثل بقية أهل

المدينة، المكان الذي يتجه اليه الباص.

وبدت للأنظار أسوار مدينة بيزنطة القديمة التي تداعت من القدم، ولكنها ما زالت تكتسب روعة بحجمها وشكلها، وكانت تقوم هناك كنيسة سانت سافيور التي تحولت الى مسجد، وأصبحت اليوم متحفاً، وقالت في دهشة وهما يدخلان المسجد:

«ولكن سينان ليس هو الذي قام بالبناء!»

«طبعاً لا، فالمسلمون لا يسمحون بإدخال صور الأشخاص أو الحيوانات الى أماكن العبادة».

وأثناء خروجهما ليستقلا سيارة أجرة سألته عما جاء به الى اسطنبول، فأجابها وهو يمسك بذراعها ليحميها من زحام الطريق، إنه ملّ العالم الجديد، واعتقد بضرورة التوجه لقضاء بعض الوقت في العالم القديم، ثم استطرد:

«جئت الى هنا بدعوة من جامعة البوسفور لأحاضر فيها لمدة سنة، ولكنني أعتقد أنني سأمضي هنا فترة غير قصيرة إن استطعت».

فعضّت مادلين شفتها وقالت له:

«إن أتاحت لك أورسولا ذلك! وهذا هو السبب الذي يجعلك تتهرب منها، أليس كذلك؟ وعليك الآن أن تقابلها لكي تتخلص مني!»

«أورسولا هي مشكلتي، فأنا أستطيع أن أعنى بشؤون حياتي، ولم أتطلع للقاء أرملة أخي أو للصدام معها. مرت فترة طويلة منذ كان لأية امرأة دخل في تسيير شؤون حياتي، وأعتقد في استطاعتي التصدي لأورسولا أديناي أو لأي شخص آخر!»

وقالت له مادلين:

«تخلصت مني بسرعة عندما علمت أنني أعمل لديها».

وتمنت مادلين وهي تقول هذا ألا يفضح صوتها مدى الألم والمرارة اللتين شعرت بهما عندما افترقا في المرة السابقة.

فنظر إليها وقد تهللت أسارير وجهه وقال:

«لم أعتقد أنك تستحقين الخوض في شجار بشأن أورسولا، لكن إصرارك على تعقبي حتى منزلي جعل هذا أمراً لا يمكن تجنبه».

فصاحت قائلة له إنها لم تتعقبه، ولم تكن تعلم أنه هو مارك أديناي، ولو أنها علمت لفضلت أن تدخل السجن أولاً. فابتسم وقال لها:

«أحياناً أتمنى لو لم أكن مارك أديناي!»

«أنا آسفة».

«أعرف أنك تأسفين، فهاروك بك كان شخصية أكثر شاعرية».

فاعتدلت في إباء قائلة:

«إنني لست طالبة في مدرسة».

وسكتت لحظة لترى ما إذا كان سمع ما قالته، ثم اندفعت قائلة:

«وبالاضافة الى هذا، فإنك يجب أن تكون تركياً، لأن رأيك في النساء هو رأي شرقي جداً!»

وشجعها على مواصلة كلامها فسألها قائلاً:

«وما هو هذا الرأي؟»

فتمنت لو أنها لم تقل شيئاً بالمرة ولكنها أضافت قائلة:

«أجد الجرأة في نفسي لأقول لك إن أورسولا تعرف عن أمور البشر أكثر مما تعرف أنت!»

«إنها لا تعرف. وحتى لو كان الأمر كذلك مثلما تقولين فإنني لن أتلقى منها أية أوامر، هل هذا يرضيك؟»

«ولماذا يرضيني، إنني لا أعبأ بما تفعله!»

«أورسولا تستخدم نفوذها في أمور لا أوافق عليها، ولم يكن بوب قادراً على التعامل معها عندما كان على قيد الحياة، وليس لي ميل لأخوض معها هذه التجربة».

«طبعاً لا، فأنت لا ترضى عن أية امرأة لا تلقي بنفسها مستسلمة عند قدميك!»

فرفع أحد حاجبيه وسألها في تهكم:

«وما وجه اعتراضك على هذا؟»

وبدأت ترد عليه بقولها:

«هناك نساء...»

فقاطعها موافقاً وقال بسرعة:

«هناك فعلاً نساء، وهناك بعض منهن بين صديقاتي، وإنني أفضل نوعاً مختلفاً من العلاقة!»

«على أن تكون أنت السيد!»

فرد عليها في هدوء:

«إنني رجل، اعتقد أنه يجب أن تصدر المبادرة من الرجل في مجال العلاقة بين الجنسين. ولدت يا مليحة لكي تكوني فريسة وليس صياداً، فهذا هو أحد الجوانب المحببة فيك!»

وأدركت أنه يتعمد إغاظتها، وقد أثارتها كلماته فعلاً فقالت له في جسارة:

«ليست لي مثل تجربتك طبعاً، ولهذا فإنني لا أرغب في إطلاق أحكام عامة في هذا المجال!»

، فوافقها قائلاً:

«هذا صواب، فمن الأفضل ألا تخوضي في جدال لا تستطيعين الفوز

فيه، وهناك وسائل أخرى للوصول الى ما تريدين معرفته، ولكن لترجىء الكلام في هذا الموضوع الآن، وإلا فإنك ستجدين نفسك تخوضين في مياه أعمق من أن تبلغ قدماك قرارها. هل اتفقنا؟»

ومرت لحظة مؤلمة تملكتها فيها الحيرة والتردد والخوف، وتعتقد أنها منذ التقت بمارك وهي تخوض فعلا في مياه أعمق من أن تبلغ قدماها قرارها، ولكن وجدت نفسها بصورة من الصور تستمتع بهذا الاحساس المثير.

وردت عليه قائلة:

«إنني لا أحاول مجادلتك».

فقال لها بجفاف:

«إنني سعيد بسماعي ذلك».

وقاما سوياً بزيارة مسجد أيا صوفيا الذي كان من قبل كاتدرائية سانت صوفيا، التي انشئت عام ٥٣٢ ميلادية، وأخذت تتجول في أنحاء المسجد محاولة أن تركز ذهنها على شرح مارك لتاريخ النقوش والكتابات والاعمدة والأماكن التي جمعت في أنحاء الامبراطورية الشرقية.

وحدثها مارك عن حياة النساء في ذلك المجتمع القديم فقال لها وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة:

«لم تكن الحياة العامة هي مجالهن الطبيعي. وكن في وقت من الاوقات يحكمن الأمبراطورية كلها، ولكنهن كن يلزمن منازلهن ليعملن على إسعاد أزواجهن وتخفيف عناء الحياة عنهم. وكن يتمتعن بحب أشد من جانب أزواجهن في مثل تلك الظروف».

«وهل من الطبيعي أن يكون كل شيء بالنسبة للمرأة هو أن تكون

محبوبة؟»

«هذا بالنسبة لبعض النساء».

«ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لأورسولا».

«أحقاً هذا؟ اعتقدت دائماً أن تكالب أورسولا على السلطة والمال هو لتعويضها عن الحب الذي لم تجده في حياتها إطلاقاً».

فاتسعت عينا مادلين في دهشة وسألته:

«ألم يكن أخوك يحب أورسولا؟»

«كان يفعل هذا بطريقته، ولم يكن بوب كفوءاً لها، ولهذا فإنها كانت تحقر من شأنه، فالنساء يفعلن هكذا عادة كما تعلمين».

«إنني لا اعرف هذا، فأنا أومن بالمساواة الكاملة!»

وتعجبت وهي تتساءل عما أضحكه وقالت له في حدة:

«أتظن أنك تعرف كل شيء!»

«نعم كما قلت بالضبط، فلديّ خبرة كبيرة».

وأخذ يلاطفها، وتأبط ذراعها في رقة، ثم تركها لتقوم بجولة حرة داخل المسجد، لأنه أراد أن يتفحص شيئاً بنفسه من جديد. وتوقفت مادلين في إعجاب أمام اثنين من قدور الماء الفخارية التي ترشح الماء، وفجأة سمعت صوت مارك من خلفها يقول لها:

«أليس من الأجدر أن تبحثي لك عن زوج أولاً؟»

«ولماذا؟»

«في العصر العثماني كانت النساء تأتين الى هنا وتصلين حتى تتزوجن بسرعة، وما زالت بعض النساء يفعلن ذلك الى اليوم، ولكن ليس بنفس الدرجة من الاقبال مثلما كن في الماضي».

«أحقاً هذا؟»

وخشيت أن تكون وجنتاها احمرتا ولكنها اغتبطت عندما اتجه نحو الباب لأنها أخذت في تلك اللحظة تفكر فيما يمكن أن يكون عليه شكل ابن مارك. وهذا التفكير جعلها تشعر بأنوثتها، ولأول مرة في حياتها أحست بالغيرة كسكين حاد يخترق أحشاءها، وهي تفكر في المرأة المجهولة التي ستصبح أماً لهذا الابن.

ودعاها في المساء لتناول الطعام في أحد المطاعم، نظراً لأن محرياه كانت في عطلة تلك الليلة، ولكنها ترددت لأنها كانت لا ترتدي الزي الملائم الذي يصلح للمساء. والقميص والبنطلون اللذان كانت ترتديهما لا يصلحان لدخول مطعم بعد حلول الظلام. ولكنه طمأنها الى أن هذا المطعم ليس من الأماكن التي ينصرف اليها تفكيرها.

وفي داخل المطعم أخذت تتلفت حولها، وتأكدت من صحة كلام مارك، إذ لم يكن هناك الكثير من النساء. وكان بعضهن يرتدين البنطلونات بدون تقيد بأي زي رسمي. وقالت له مادلين:

«إنه لأمر محرج ألا يجد المرء زيا مناسباً يرتديه».

فراح ينظر اليها باعجاب قائلاً:

«إنك تبدين في نظري حلوة كالتفاحة!»

إن الشعور الذي تملكها منذ قابلت مارك لأول مرة، جعلها تحس بأنها تحلق في الخيال. ولم تشعر بتلك الأسرة من الغجر التي جاءت للترفيه عن نزلاء المطعم، الى أن أفاقت على صوت الموسيقى التي أخذت تصدح فجأة.

وأحست مادلين أن مارك يعرف إحدى الفتاتين في تلك الفرقة من الغجر، وهي أجملها، وقد اقتربت من مارك وانحنت نحوه وقد بدا عليها الاغتباط لوجوده، وأخذت تحدثه بالتركية فمازحها وضحك

لكل كلمة قالتها بدون أن يكترث بامتعاض مادلين من ذلك.

وجاء دور الرقص، فوجدت الراقصة في مارك رفيقاً جاهزاً. ثم تركته الراقصة لتبحث عن رفيق آخر ثم عادت لتتجه نحو مادلين وتعرض عليها تعليمها الرقص الشرقي. فوافقت مادلين وراحت ترقص معها. ولما انتهت من الرقص، قدم مارك ورقة مالية لمادلين بالطريقة التقليدية المعتادة بأن دسها في صدرها، وهي تبدي الاحتجاج له فقال لها:

«ألم أقل لك إن هذه هي طريقة تقديم النقود للراقصات!»

ولم تعترض مادلين عندما عادت الراقصة تطلب مراقصته من جديد، بل إنها لم تشعر به حين ترك المائدة، ولم تكد تحس بالجلبة التي أحدثتها الراقصات وهن يقفن فوق الموائد ويتنقلن من مائدة لأخرى لملاحقة زبائن المطعم طلباً للنقود، لأنها لم ترفع عينيها عن المائدة، بل لم تكن تعرف ما الذي تناولته من طعام. وعندما خرجا سوياً من المطعم كان البرد يلفح ذراعيها العاريتين، ولم يكن معها معطف يقيها الصقيع. ووجدت في نفسها الشجاعة لاخراج الورقة المالية من مكانها وهي تحتمي بالظلام حتى لا يلحظ شعورها بالحرج، ثم وضعتها في جيبها.

واقترح عليها أن يسيرا على الشاطىء لكي يستقلا إحدى العبارات عند قصر دولماباهس، فسارت صامتة بجانبه وهي غير قادرة على التفكير في اي شيء تقوم به. وقد أحبّت النظر الى الأضواء وهي تتراقص على سطح الماء، وأن ترى الأحجام الضخمة للسفن الزائرة الراسية عند رصيف الميناء. ولكن الجو كان شديد البرودة وأخذت أسنانها تصطك عندما وصلا الى مرفأ العبارات بعد أن سارا مسافة

بدت لها وكأنها أميال، وسط الظلام الذي يلف المكان.

وساعدها على النزول الى أحد القوارب الصغيرة، ولما لاحظ أنها ترتعد من البرد فتح معطفه ومدّه ليغطيهما معاً، وقال لها في سخرية:

«لقد نسيت أنك لا ترتدين شيئاً يحفظك من البرد، لماذا لا تقولين شيئاً؟»

«لا أستطيع».

«مسكينة يا مليحة! إنك تأخذين الحياة بجدية، أليس كذلك؟»

«إنني أحاول ذلك».

ودست يدها في جيبها، وأخرجت الورقة المالية التي أعطاها لها، فوجدت أنها ورقة من فئة مائة ليرة، أي توازي قيمتها، كما اعتقدت أكثر من جنيهين استرلينيين وقالت له:

«ما كان يجب عليك اعطائي هذه، خذها».

فضم يده فوق يدها وقال لها:

«لا تكوني حمقاء يا مادلين. أريدك أن تأخذيها فقد أثبت مقدرتك كراقصة!»

«وهذا هو السبب الذي يجعلني أرفض قبولها، فأنت يمكنك شراء خدمات أولئك الراقصات، ولكنك لا تستطيع شراء خدماتي!»

فضمها اليه بذراعه وسألها وقد تحركت عواطفه:

«هل أنت واثقة من هذا؟ أعيدي النقود الى جيبك».

فصاحت قائلة:

«كلا، لن أفعل».

وانحنى برأسه لتتقابل عيناه عينيها، ثم أمسك مؤخرة رأسها بيده ليجذبها نحوه بقوة وهو يقول:

«أرأيت؟ إن خدماتك ليست بعيدة المنال».

وقالت لنفسها فيما بعد إنها لو كان لها قدر من الكبرياء لفعلت شيئاً عندئذ للافلات من بين يديه. ولكن الحقيقة المهينة تؤكد أنها لم تفعل شيئاً من هذا القبيل، بل لقد التفت ذراعها حول رقبته وراحت تضمه اليها أكثر، وهي مغتبطة بأن يضمها كيفما شاء ووقتما يريد. وفتحت عينيها وقد أحست بصدمة وهو يقول لها وضوء القمر يضيء وجهها:

«لقد وصلنا تقريباً».

«أحقاً؟»

وبدأت تفيق وهي تشعر بالخجل وعندما قاما للنزول من القارب أحست بالحرمان من دفء معطفه، وأخذ الورقة المالية ودسها في جيب قميصها وهو يقول لها:

«إذا نظرت اليّ هكذا فسوف اعانقك مرة اخرى امام الناس».

وأمسك بيدها وهو يساعدها للنزول من القارب وجذبها اليه ومس خدها بيده ولكنها ابتعدت عنه، وقد عادت اليها كبرياؤها وانحلت عقدة لسانها، وقالت له بحرارة:

«لاحق لك في هذا! لا حق لك بالمرة! ليست غلطتي إنني مضطرة لأن أكون معك، فأنت شقيق زوج السيدة التي أعمل لديها، وسأكون شاكرة لو تذكرت ذلك! قد لا يعجبك هذا ولكن هذا هو الوضع القائم، سوف أتركك وأذهب الآن إن كان هذا في استطاعتي، ولكن ليس ذنبي أنني لا أستطيع ذلك!»

فقال لها موافقاً إياها:

«كلا، إنها ليست غلطتك يا آنسة مادلين كارفيل، ولنأمل من أجل صالحنا معاً أن تتذكرك أورسولا عاجلاً وليس آجلاً. لا تنظري اليّ

هكذا يا عزيزتي فإنني لا اريد ان أعانقك مرة اخرى وأنت في رعايتي، برغم أنني أريد أن أعترف لك بأنني أفضل اسم مليحة على مادلين!»

إنها هي أيضاً تفضل هذا الاسم على ذاك. وكانت مادلين عندما تخلو لنفسها في غرفتها تبكي بسبب كل الذي فقدته. ما الذي حدث لها؟ جلست فوق السرير وهي في دهشة من أمرها. إنها بكل تأكيد لا تريد الانضمام الى سلسلة النساء اللواتي اقمن علاقات معه في الماضي. ومن المؤكد أنها، بأفكارها الغربية القوية عن حق المرأة في المساواة، لا تتطلع الى هذا.

٥ ـ اتبعيني واحبيني

أدركت مادلين، قبل أن تفتح عينيها، أن السماء تمطر، فقد سمعت صوت تساقط المطر على النوافذ التي راحت تهتز وتضطرب، وهو ما جاء تعبيراً أيضاً عن الحالة المزاجية التي لازمتها طوال الليل، وكلفتها الكثير، سواء من حيث حرمانها من النوم أو فقدانها لاحترام الذات. وأغمضت عينيها وهي تحاول الاستسلام للنعاس ولكن بدون جدوى، فقد ظلت صورة مارك عالقة بمخيلتها وهو يضمها ويلاطفها،وأخذ قلبها يخفق بقوة، مثلما حدث لها من قبل كلما تذكرت هذا الموقف.

إنها لا تستطيع أن تواجهه مرة أخرى، فماذا يحدث لو عرف بحقيقة مشاعرها؟ لا عذر له في ألآ يدرك المشاعر التي تعتمل في صدرها لأنها، كما تتذكر الآن، تعلّقت به وهو يعانقها، وذلك على الرغم من أنها قد عنّفته فيما بعد في إباء، وبطريقة لا يمكنها أن تخدع طفلاً صغيراً! لقد عرفت رجالاً من قبل ولكنها لم تسمح لهم بضمها، ولكنها أيضاً لم تسمح لمارك بأن يعانقها، فقد استحوذ عليها بدون أن يسألها معتبراً قبولها شيئاً مفروغاً منه، تماماً كما لو كان ذلك الرجل التركي المتعجرف الذي تخيلته من قبل.

ولكن هذا ليس هو السبب في انزعاجها، وإنما السبب يكمن في

تجاوبها مع تصرفه هذا. لقد وضعها وبقوة في المكان الذي حدده لها، بغضّ النظر عن رأيها الذي راحت ترده مراراً عن ضرورة الاستقلال، وهي راضية عن الوضع الذي اختاره لها! لابد قد اهتزت شخصيتها إلى الحد الذي تهبط فيه إلى مجرد محظيّة في الحريم، لا تطمع في أكثر من اسعاد أحد الرجال! ولكنها لا يمكنها أن تنحدر إلى هذا المستوى! ورأت ضرورة أن تتجنب وجودها معه وحدها بعد الآن، لتثبت له أنه يتعامل مع أنثى يجب أن يحسب حسابها! أنثى يمكنها أن تبقى معه أو تتركه وحده بنفس العجرفة التي أبداها نحوها!

كان الجو بارداً بخلاف الطقس المشمس الذي ساد في اليوم السابق. ومما زاد من قسوة الصقيع، تلك الرياح الباردة القادمة من روسيا. وابتعدت مادلين عن النافذة وراحت تنظر إلى نفسها في المرآة، ولم ترض عن الظلال السوداء تحت عينيها. وراودتها فكرة ارتداء ملابسها والنزول إلى الطابق السفلي، وقالت لنفسها إنها إن تراجعت عن تنفيذ تلك الفكرة فإنها ستجعل نفسها نهباً للمزيد من المخاوف.

كانت محريماه وحدها عندما نزلت، وقد بدت الدهشة عليها عندما رأت مادلين. وقامت بإعداد قدح من القهوة لها بدون أن تطلب ذلك. وقدمت لها معطفاً قديماً من معاطف مارك كي ترتديه في البيت، وأفهمتها بالحركات التعبيرية أن مارك خرج من البيت بعد أن تناول طعام الافطار مباشرة، وأن من المتوقع أن يعود لتناول الغداء. ثم صعدت إلى أعلى للانصراف إلى مهامها المنزلية تاركة مادلين في غرفة الجلوس، تحاول أن تطرد من رأسها فكرة أنها وحيدة وأنها كانت مستعدة للتخلي عن أي شيء، مقابل الخروج مع مارك مهما كانت العواقب.

وبرغم ذلك فكر فيها قبل أن يخرج، إذ ترك لها الآلة الكاتبة فوق مائدة صغيرة، وبجوارها مجموعة من مذكراته غير المرتبة. وكان باستطاعتها قراءة معظم المذكرات، ولكن الكثير من مصطلحاتها كان غريباً عليها فلجأت إلى الاستعانة بقاموس وبأحد كتبه السهلة الخاصة بالفن المعماري.

وعندما انتصف النهار كانت قد أتيحت لها الفرصة، وهي بعيدة عن تأثير مارك عليها، لكي تتعرف على الفن المعماري العثماني الذي هو موضوع أبحاث مارك. وتوجد للفنان سينان، الذي عاصر الملكة اليزابيث الأولى، مائة وعشرون على الأقل من الأعمال الفنية الضخمة، منها المساجد والمستشفيات والحمامات التركية الشهيرة والمدارس.

ونزلت محريماه وهي تقهقه، فذهبت مادلين إليها في المطبخ لترى ماذا في الأمر، فرأتها تقوم بكي إحدى بيجامات مارك، وأفهمتها بالاشارات أنها لم تتوقع أن تنام مادلين في جناح الحريم القديم بدون أية مساعدة، وكان ذلك بمثابة دليل جديد على الطريقة التي يعامل بها مارك عادة النساء اللواتي ينزلن في بيته! وغلى الدم في عروق مادلين، وانصرفت لعملها في إعداد مذكرات مارك. إنه أسوأ من دون جوان ولا يحمل أية عاطفة لضحاياه. إنه في حاجة لمن يتصدى له، وستكون هي ذلك الشخص الذي يفعل هذا. وعليها أن تتأكد من عدم تواجدها معه وحدها، حتى لو كان معنى هذا ألاّ يتاح لها مشاهدة المزيد من معالم اسطنبول.

ولكن قوة إرادتها انهارت فجأة عندما سمعته يدخل من الباب، وتظاهرت بالانشغال بالكتابة على الآلة الكاتبة واقترب من ورائها،

وأخذ يمعن النظر إليها فالتفتت إليه وقالت له إنها كانت تشعر بالبرد وأن محريماه أعارتها هذا المعطف. وعندئذ قال لها:

«قرّرت اقتسام ملابسي معك، وطلبت من محريماه أن تقوم بكيّ البيجامة النظيفة التي لديّ لتقديمها إليك، ولعل في هذا بعض العزاء لك لاحتلالك الطوابق العليا من البيت حسب رغبتك».

فقالت له مادلين بحدة:

«أعتقد أن هذا أمر غير مألوف هنا!»

«بل لم يسمع به أحد من قبل. وهل كنت تتوقعين أن يحدث العكس؟»

فقالت وهي ترتجف رغم المعطف الذي ترتديه:

«كلا!»

ونظر إلى المذكرات التي كتبتها في دقة ونظام، وقال لها إنها لابد أنجزت قدراً كبيراً من العمل في إعداد مذكراته. فرمقته في شك، وهي تتساءل عما إذا كان أدرك أنها بدونه كالتائهة وتشعر بالوحدة والقلق. وذلك برغم كل القرارات التي اتخذتها في شأنه ولكنها صاحت فيه قائلة:

«لا شأن لي بما تفعله!»

«أليس لك شأن بالمرة؟ إنني لا أحب أن أتعرّض للتعنيف من فتاة وقحة لشيء لا شأن لها به، ولهذا فإننا سوف ننهي اتفاقنا. أليس كذلك؟»

فحاولت أن تتراجع عما قالته وهي تتلعثم، فابتسم وقال لها إنه يتمنى لو لم يكن قد وعدها بألا يعانقها مرة أخرى في الوقت الحاضر، وأنها تغريه جداً ليتأكد مما إذا كانت لا ترغب في هذا أيضاً!

«لا أرغب في هذا! ولا أحب هذه الطريقة! إنني أفضل أن يستأذنني

من يطلب مني شيئاً»

وابتعدت عنه داخل الغرفة إلى أقصى ما تستطيع وأضافت قائلة:

«ثم إنني لست وقحة. ولماذا أعنفك إن كنت أشعر برغبتي في هذا؟ إن لي أشياء أحبها وأخرى لا أحبها، ولي مشاعر أيضاً، وهو ما يجب أن تعرفه!»

فقال لها في تراخ:

«إذاً من الأفضل أن تسيطري على تلك المشاعر».

فردّت عليه قائلة:

«لا تتورع عن توبيخي، وأنت دائماً تملي عليّ ما يجب أن أفعله!»

واكتشفت أنه من الأفضل لها أن تغضب بدلاً من أن تظل مشلولة أمام جاذبيته.

فهز رأسه، وبدا من نظراته أنه لم يعد يغتبط من كلامها، ورمقها بنظرة أدخلت الخوف إلى قلبها وقال لها:

«أتعودين إلى مسألة المساواة مرة أخرى؟ أنصتي إليّ يا مادلين، لأنني لن أعيد هذا الكلام مرة ثانية، ليس هناك شيء بيننا اسمه المساواة، ولا علاقة لهذا باختلاف الجنس، ولا يجب أن تلقي بقفازك في وجهي تحدياً كلّما اقتربت منك، قد تدفعينني بهذا لانسى أنك تعملين لدى زوجة أخي، وستكونين أنت الخاسرة. فهذه المعركة بأكملها معركة الجنس، وأنت مكتوب عليك أن تفقديها لأنك امرأة وأنا رجل. وأثناء ذلك عليك أن تفعلي ما أطلبه منك، وأن تنحي جانباً أساليبك الأنثوية المخادعة، إلى أن تقرّر أورسولا البحث عن مكانك!»

وأطلق بعض الضحكات وأضاف قائلاً:

«ما سوف يحدث بعد ذلك هو في علم الغيب، ولكنني أتكهن بأنك

ستجدين، عندما نصل إلى اتفاق في النهاية، أن من الأفضل لك أن تكوني تابعاً على أن تكوني قائداً!»

وهزّتها جرأته بعنف وانفجرت قائلة:

«أكرهك، وأعتقد أنك مجرد من الشفقة».

ومدّ يده إليها وراح يجمع المذكرات التي كتبتها له باليد الأخرى، وأثنى على عملها ووعدها إن هي استمرت في العمل بنفس النشاط، فإنه سوف ينوه عنها عندما ينشر بحثه عن سيناء.

وتحركت مادلين في تباطوء، لتقف إلى جانبه فرحة، رغم أنفها، لمدحه إيّاها. وسألته عما إذا كانت دار أديناي للنشر هي التي ستنشر البحث، فأجابها بالنفي.

وجلسا في مواجهة بعضهما البعض على مائدة الغداء، وقد حرصت على ألاّ ترفع عينيها عن طبق الطعام حتى لا تلفت نظره إليها مرة أخرى. ولما لاحظت أنه ينظر إليها رمقته بنظرة وهي تبتسم، وسألته وهي تشعر بالارتياح لأن صوتها لم يكشف عما تعانيه من قلق واضطراب، قائلة:

«لماذا يطلق عليك الأتراك اسم ماروك بك؟»

فقال لها إن ماروك هو النطق التركي لاسم مارك، وأن بك لقب احترام للرجل، وإذا ما كانت تتحدث لامرأة فإنها تضيف كلمة خانم لاسمها، فيقال مليحة خانم مثلاً!

فنظرت إليه بخجل وقالت له:

«اعتقدت في البداية أنك تركي».

«كان هذا واضحاً لي يا عزيزتي، كانت لمسة رومانسية لم أستطع مقاومتها، إذ أنها مغامرة رائعة لك أن يجتذبك رجل من الشرق... وقد

شعرت بالأسف لأنني جعلتك تعيشين في هذا الوهم إلى أن اكتشفت أنني أمريكي وغربي مثلك».

«وبرغم أنك غربي فإن أفكارك عن النساء شرقية جداً».

فضحك قائلاً:

«لا عليك يا مليحة، فإنني إن كانت لي تلك الأفكار، فإن لديك الاقتناع بأنك مازلت جوزد وبهجة لعيني».

«هل أنا كذلك؟ وكم أيضاً من الأخريات؟»

وأخذ يتفحص جسدها بنظراته في إعجاب، برغم أنها أحسّت أنه ليس من حقه أن يجعلها تنتبه إلى جسمها وتشعر به.

وعرض عليها أن يخرجا سوياً بعد الظهر في نزهة بالقارب في مضيق البوسفور. وشعرت بأن رأسها في دوامة، فقد سبق أن قررت ألا تخرج معه إلى أي مكان، وصممت على رفض دعوته بإباء، وبطريقة مهذبة، ولكنها بدلاً من ذلك قالت له موافقة:

«نعم. نعم أرجوك».

ونزلا إلى مرسى القوارب الذي كان معتماً ويبعث على الخوف. وكانت مادلين ترتدي نفس المعطف الذي كان يضمها معاً في الليلة السابقة. ولاحظ مارك أنه كبير الحجم جداً، فأخذ يساعدها في ثني كميّ المعطف، وقال لها إنها تبدو كطفلة تخشى خروج الأشباح من البحر. فقالت له إنه ربما كانت هناك فعلاً أشباح في البحر، ولابد أن مرسى القوارب هذا كان له نصيب من الفظائع التي شهدتها العصور الغابرة، وأخبرته بأنها قرأت عن هذه الفظائع. وعندئذ نصحها مارك بأن تختار ما تقرأه، وأن من الأنسب لها أن تقرأ رواية غرامية. فقالت له إنه لم يكن هناك أقوى من قصة غرام سليمان العظيم وروكسلانا

التي وقع في حبها واتخذها زوجة له.

وأبلغها، وهو ينتهي من ثني كميّ المعطف، أن الغربيين يطلقون عليها اسم روكسلانا أو الروسية نسبة إلى الأصل الذي يعتقد أنها تنحدر منه، في حين يسميها الأتراك هاسكي حريم، وقد ذكرت الكتب أن الشعب كان يطلق عليها الساحرة، لأنها سحرت لب السلطان وجعلته يحبها حباً جماً.

«بالرغم من كل النساء في الحريم؟»

«لقد نحاهن كلهن جانباً وفضلها عليهن، وتلك هي قوة المرأة عندما تصبح محبوبة!»

وفهمت من لهجته أنه يعني أكثر مما تعنيه مجرد الكلمات التي تفوه بها وسألته:

«هل استخدمت سلطتها بحكمة؟»

«ليس تماماً، كانت تتملكها الغيرة، ولم تكن مقتنعة بأنه أحبها أكثر من أية واحدة أخرى، وأكثر من أي شيء في امبراطوريته كلها. وكانت تتطلع لأن يصبح ابنها هي الوارث للعرش، ولهذا فإنها دفعت سليمان لقتل ابنه الأكبر بعد أن أبلغته بأنه يتآمر عليه».

فقالت مادلين وهي تتلمس العذر لروكسلانا:

«أعتقد أنها كانت تتطلع لأن تصبح أم السلطان، لأنها ستكون أقوى نفوذاً وهي أم السلطان منها زوجة السلطان».

«لسوء حظها ماتت قبل موت زوجها، وتركت الامبراطورية في يد سليم السكير، وكان في ذلك بداية الاضمحلال والانهيار».

«أعتقد أنها كانت غلطة سليمان، فما كان يجب عليه أن ينصاع لها!»

«إنها نظرية تثير الاهتمام تصدر عن واحدة تعتبر نفسها متساوية مع أي

رجل».

فقالت له محتجة:

«ولكن الأمر كان مختلفاً في تلك الأيام».

فرفع حاجبيه متسائلاً:

«ولماذا؟»

فهزت كتفيها وهي تتطلع إلى داخل المرسى لانهاء المناقشة. ورأت قارباً يعمل بمحرك فنزلت إليه واستقرت فيه، وسألته عن كيفية تشغيل المحرك، ولكنه لم يتح لها تحويل مسار المناقشة وسألها مرة أخرى:

«ولماذا؟»

«إن المسؤولية تقع عليه في النهاية، فهو السلطان ويملك السلطة الحقيقية، إن استخدمت سيطرتها عليه لدفعه إلى ارتكاب جريمة فإنها غلطته هو».

فسألها للمرة الثالثة:

«ولماذا؟»

«لأن الرجل يجب أن يتخذ قراراته بنفسه! وما كان يجب أن يتركها تسلبه هذا الحق!»

«هل أفهم منك أنك تتوقعين من زوجك أن يتخذ قراراته بنفسه حتى ولو كانت متعارضة مع نصائحك؟»

«طبعاً!»

ونزل مارك إلى القارب ليتخذ مكانه إلى جوار مادلين التي اعترفت له بأنها إذا أحبت زوجها فإنها ستفعل كل ما يريده منها. فأجابها مغتبطاً بأن هذا رأي يتسم بالصراحة وأنه يوافقها على ذلك.

وتحركا بالقارب خارج المرسى، وكانت مادلين سعيدة لأن المطر

توقف، ولأن الشمس كانت على وشك الظهور من بين السحب، لتشيع بعض الدفء في جو الشتاء البارد. وشهدت مادلين إحدى السفن الضخمة العابرة، وهي تطلق صفيرها الذي اعتادت سماعه، وراحت تحيي ركاب السفينة الذين ردوا التحية. وقال لها مارك إنهما سيذهبان إلى منطقة أناضولي كافاغي لشراء بعض السمك، وهي منطقة تبعد ستة أميال عن نهاية مضيق البوسفور.

وكانت مادلين مستعدة للذهاب إلى أي مكان، وتنهدت في ارتياح وهي ترقب التيارات المائية تغسل جانبي القارب. وعند الجانب الأناضولي من البوسفور رأت الفيللات التي بدت مهجورة، لأن أصحابها فروا من شتاء اسطنبول القارس. ومعظم المساكن هناك كانت مازالت مصنوعة من الخشب.

وأخذ مارك يحدثها عن نيويورك التي نزحت إليها أسرته من ولاية كونيكتيكات الامريكية، التي يزورها من وقت لآخر لأنه لا يجد طبيعة أجمل منها، وقال لها إنها يجب أن تزورها. وأحست بالحرج لأنها لم يسبق لها أن زارت أي مكان آخر في حياتها، وأدركت أنه، نظراً لكثرة اسفاره قد يجد أن قضاء فترة طويلة بصحبتها سوف يبعث على الملل، وقالت له بصوت مرتفع لكي تغطي على صوت المحرك:

«لا أعتقد أنه سيتاح لي زيارة أمريكا».

«ستكون كلها في انتظارك، وأمامك العمر المديد لكي تشاهدي العالم».

وقالت له وهي لا تصدقه:

«إنني على الأقل زرت اسطنبول!»

«ممر البقرة المائي!»

وابتسم قائلاً:

«هل تعلمين أن هذا هو معنى كلمة بوسفور؟ فلقد تحولت يو حبيبة زيوس إلى بقرة صغيرة لاخفائها عن هيرا زوجة زيوس، ولكن عملية التمويه هذه لم تنجح لأن ذبابة الماشية التي تملكها هيرا أخذت تتعقب يو التي اضطرت إلى القفز في الماء الذي يفصل أوروبا عن آسيا، ولهذا فإنه أصبح يعرف بممر البقرة المائي».

فقالت مادلين:

«هذا يدل على أن الأشياء لا تتغير، فحتى زيوس لم يكن قانعاً بزوجة واحدة».

ووصلا إلى الشاطىء، حيث رأت قوارب الصيد وشباك الصيادين منشورة لتجفيفها، بينما أخذ الصيادون يبيعون محصول اليوم من الأسماك. ورأت الحقول الخضراء الممتدة وراء القرية وقد أخذت بعض رؤوس الماشية تشق طريقها وسطها. وقاما سوياً بجولة ممتعة في القرية، ودخلا مشرباً للشاي حيث طلب مارك لها بعضاً من الحليب، وطلب لنفسه قدحاً من الشاي. وقالت له مادلين:

«إنها عادة تركية أن يتناول المرء الحليب على شاطىء البوسفور، أليس كذلك؟»

«فعلاً ويقال إن الحليب يفيد جلد المرأة فائدة كبيرة».

ولم تعترض مادلين عندما قال لها إنه حان وقت العودة، ووقفت إلى جواره وهو يشتري كمية كبيرة من السمك ووضعها تحت المقعد في القارب. وقفزت إلى داخله في الوقت الذي ادار فيه مارك المحرك.

وفي طريق العودة إلى الفيللا يالي أشار إلى الأبنية الخاصة بجامعة البوسفور التي يعمل فيها على الساحل الاوروبي. وهي تقع في حي بيبيك، ومعناها الطفل الرضيع، وهو أرقى حي في

اسطنبول، وفيه تم تكريم بربروسا ودفنه كما تقع فيه قلعة روميلي هيسار التي بناها بربروسا الفاتح في ثلاثة أشهر، لمنع وصول أية نجدات من البحر الأسود أثناء حصاره للمدينة عام ١٤٥٢ ميلادية.

وأوضح لها مارك أن روميلي هو الاسم الذي كان يطلقه الأوروبيون قديماً على تركيا. وتعد تلك المنطقة هذه الأيام من أجمل البقاع لقضاء الصيف. وتقام هناك العروض المسرحية، كما تعزف فيها الموسيقى بعد الظهر أيام الآحاد.

وأحست مادلين بقطرات المطر بدأت تتساقط فأسرعت بالاحتماء تحت السطح الخشبي الذي يغطي جزءاً من قمرة القارب، فقال لها مارك إنهما اقتربا من الفيللا في أية حال. ونظرت مادلين إلى الفيللا بلونها الأبيض المميز عما حولها من منازل، وفوجئت بأن الأنوار مضاءة فيها، ونظرت إلى مارك مستفسرة عما إذا كان يعرف من في داره.

لم يكن لديها شك فيمن بانتظارهما. ودخلا بالقارب إلى المرسى أسفل البيت. وكانت أورسولا في انتظارهما على المرسى بقامتها المديدة وقوامها الممشوق، ولم تقم بأية محاولة لمساعدتها في الخروج من القارب، بل تجاهلت وجود مادلين تماماً ونظرت إلى وجه مارك الذي ارتسمت عليه ملامح جامدة وقالت له:

«حسناً، إنني هنا!»

٦ ـ رياح الماضي

حاولت مادلين أن تصلح من هندامها، وتركت معطف مارك يسقط حتى قدميها. نادراً ما شعرت بالكراهية نحو احد. ودهشت حين وجدت نفسها غير سعيدة بالمرة برؤية أورسولا. واختلط الأمر عليها وهي ترى تعبيرات وجه مارك عندما لمح زوجة أخيه لأول مرة. كانت أورسولا تتمتع بوجه جذاب، وأي رجل يحب أن يكرر النظر إليها! ولم يكن ثمة ما يدعو لكراهيتها بسبب تلك الصفات التي تتمتع بها. وقالت لها مادلين في إباء:

«كان يجب أن تتركي جواز سفري، هل تعرفين ما الذي اعتقده المسؤولون في الفندق؟»

فردّت عليها أورسولا قائلة:

«وهل لهذا أهمية؟»

فارتفع صوت مادلين وهي تقول في دهشة:

«أليست لهذا أهمية؟ أعتقد أنه أمر هام، فما الذي كان مفروضاً أن أفعله بعد أن رحلت أنت الى أنقرة؟»

جالت أورسولا ببصرها في أرجاء الغرفة ثم استقرت عيناها على وجه مادلين الغاضب وردت عليها:

«يبدو أنك وجدت راحتك هنا! ما كنت أظن أن مارك بهذه الدرجة من الكرم. ولكن ربما لانه حصل على شيء غير عادي».

فردّت عليها مادلين في صدود قائلة:

«إنك لم تفكّري فيّ بالمرة أليس كذلك؟ حين أخذت كل حاجياتي معك؟ انت لا تكترثين لأحد!»

فابتسمت أورسولا في هدوء وقالت لها:

«نسيتك لبعض الوقت لأن شاغلاً جعلني أنسى، ويجب أن اعتذر لك. ولكن بما أنك نجحت في العثور على مارك فانني أعرب لك فعلا عن أسفي».

«حسناً، أريد جواز سفري الآن!»

«كما تشائين».

وأخرجت أورسولا جواز سفر مادلين من حقيبة يدها وهي تضيف:

«أعتقد لا داعي لتلك الجلبة التي تثيرينها يا عزيزتي، فأنت تعلمين بأنه لم يكن ليحدث لك شيء يذكر، كان في إمكانهم العثور عليّ بسرعة إن أنت تعرضت لأية متاعب».

فانفجرت مادلين قائلة:

«أوه، هذا كثير جداً!»

وأخذت جواز سفرها بأصابع ترتعد، وحاولت أن تضعه داخل حقيبة يدها، ولكن الحقيبة لم تستوعبه، فوضعته فوق المذكرات التي كتبتها لمارك، وأضافت قائلة:

«أظنك ستقولين لي أيضاً إن هذا كان من أجل صالحي!»

وفي هدوء اشعلت أورسولا سيكارة وسألت مادلين قائلة:

«كيف وجدت صحبة مارك؟»

«على ما يرام».

«أعتقد أنه قال لك كلاماً معسولاً، فهو يفعل ذلك كما تعلمين مع كل فتاة جميلة يقابلها، وكلامه عادة لا يعني أي شيء».

فردّت عليها مادلين، التي احمرت وجنتاها:

«كان شقيق زوجك كريماً جداً».

فضحكت أورسولا قائلة:

«ألم يعانقك أيضاً؟ أعتقد أنه يفضل نساء أكثر نضجاً، وهذا مخيب لآمالك؛ أتذكر أن مارك يعانق بعذوبة شديدة. وليس لديه ما يردعه بالمقارنة مع بوب المسكين، الذي كان يعاملني وكأنه يخشى أن أتهشم بين ذراعيه».

ولاذت مادلين بالصمت، ثم نهضت متجهة نحو النافذة تراقب المطر يتساقط فوق البوسفور، ولم تعد الأشياء، ولا المناظر بمثل ما كانت عليه من جمال، بل أصبح كل شيء رمادياً، الأبنية والأرض والسماء، وحتى المياه التي تفصل بين شطري المدينة.

وسألتها أورسولا في نعومة:

«ألا توافقين على حب مارك لي؟»

فهزت مادلين كتفيها استخفافاً وقالت لها:

«لا شأن لي بما تفعلينه إلاّ إذا كان يؤثر عليّ، لماذا ذهبت الى أنقرة؟»

«عرفت أن صديقاً لي موجود هناك، وكانت لي رغبة شديدة في مقابلته، اضطررت الى دفع مبلغ كبير لشحن أمتعتك، وكانت تلك هي أول مرة أعرف فيها بأن أمتعتك معي».

«لا بدّ أن أحداً ما حزم تلك الأمتعة».

«فعلت ذلك عاملة تنظيف غرف الفندق، أثناء قيامي بتسديد حساب الفندق وحجز تذكرة الطائرة. هل ما زلت غاضبة مني؟»

نظرت إليها مادلين قائلة:

«نعم».

فضحكت أورسولا وردت:

«ولكن لم؟ شرحت لك ما حدث».

«إنك لم تبدأي بعد في الشرح. انا آسفة يا سيدة أديناي، لا أشعر بأنني أستطيع الاستمرار في العمل معك بعد الآن، وأرغب في العودة الى لندن».

«هل فكّرت بأن المسؤولين في مكتب لندن، قد يستغنون عن خدماتك، إذا عرفوا أنك تخليت عني عندما بدأت أواجه المصاعب؟»

«ولكني لم أتخل عنك، أنت التي تركتني!»

«ربما يصدقونك... ربما».

فابيضّ وجه مادلين وقالت:

«ولم لا؟»

«لأنني لن أشرح الأمر بهذه الطريقة في الرسالة التي سأرسلها إليهم».

فصاحت مادلين في وجهها:

«لم يسبق لي مقابلة انسان في مثل أنانيتك، وعدم أمانتك، وافتقارك للاستقامة!»

ضحكت أورسولا. وكان الانفعال الوحيد الذي لاحظته مادلين في وجهها هو بعض الجمود حول عينيها. وحتى هذا الانفعال اختفى عندما فتح الباب ودخل مارك الغرفة وهو يجفف يديه بمنديله. وحيّته أورسولا بابتسامة دافئة وسألته:

«هل تعتقد أنني غير أمينة وأفتقر للاستقامة»

فردّ عليها بجفاف:

«يحتمل هذا».

«كم أنت قاس! أعتقد أنك أدخلت هذه الفكرة في رأس مادلين التي لم تكن لتخاطبني بهذه اللهجة».

فردّت مادلين:

«لم يكن لديّ سبب يدعوني لهذا...»

ثم اندفعت قائلة وقد نفد صبرها:

«ولا يهمني لو فقدت عملي».

فتدخل مارك وطلب منها أن لا تندفع وأن تؤجل التفكير في هذا الأمر بعد أن تهدأ مشاعرها، وأن تترك له الموضوع. فتركتهما مادلين وهي تمسح دموع الغضب والانفعال التي سالت على خديها. وسمعت أورسولا تقول لمارك إن الطريقة التي عامل بها مادلين هي التي حملتها على أن تتطلع للعودة الى لندن. وأضافت قائلة إن مادلين طفلة، ولكنها لا تحب أن تعامل كطفلة! فردّ عليها مارك بقوله:

«هذا الأمر لا شأن لمادلين به، أنه مسألة بيني وبينك».

اسرعت مادلين بالصعود الى غرفتها وارتمت فوق سريرها والانفعالات الشديدة تمزقها. فكيف يقول مارك إن هذا الأمر لا شأن لمادلين به؟ وهل هو يتفق مع أورسولا على أنها طفلة ويجب معاملتها هكذا؟

وعادت بها الذاكرة الى اللحظات التي عانقها فيها، والعواطف التي حركها في داخلها، فهل فسرّ تجاوبها معه صادر عن طفلة؟ لا يمكنها تصديق هذا. كانت تحس به يرتجف عندما يطوقها بذراعيه. لقد عانقها كامرأة وليس كطفلة، وقالت لنفسها إنها هي وليست

أورسولا التي ناداها مارك بمليحة، وهي لن تسمح لأحد بأن يسلبها هذا!

وغادرت فراشها متجهة الى خزانة الملابس لكي ترتدي أحسن ما عندها، وتثبت لأورسولا أنها ليست طفلة. ووضعت أحمر شفاه أرجوانياً ينسجم مع لون بشرتها السمراء. وعندما عادت الى الطابق السفلي أبدى مارك إعجابه بهندامها. وحاولت أورسولا أن تستفزها فسألتها عما إذا كانت هي التي قامت بإعداد الفراش لها، فردت عليها مادلين، بأن البيت فيه مشرفة وهي التي تقوم بذلك! فقال مارك إنها تدعى محريماه، وأنها تقدمت في السن، وهي تعاني من الروماتيزم في ركبتيها. فراحت أورسولا تسخر منها، وتتساءل عما إذا كان هذا هو السبب في ارتدائها غطاء فوق رأسها. فرد عليها مارك في جدية قائلاً:

«كلا، إنها لا تحب أن تكشف عن شعرهافي وجود أحد الرجال».

فانفجرت أورسولا ضاحكة، عندئذ أخذت مادلين تدافع عن محريماه، وتقول إنها لا تجد شيئاً يبعث على الضحك في امرأة تحافظ على تاجها لزوجها بل إنها تجد نساء يخفين أفواههن عندما يمر أمامهن أحد الرجال، وهن يعطين أنفسهن لأزواجهن ويخلصن لهم أكثر مما تفعل النساء في الغرب!

ولاحظت مادلين أنها عندما دخلت غرفة الاستقبال كانت كمن اقتحم عليها شيئاً ما. وعندما رأت أورسولا تخرج أصبع أحمر الشفاه من حقيبتها وتعيد طلاء شفتيها، تأكدت أن مارك لا بد وأن يكون قد عانق أورسولا، وأنه يرغب في تكرار ذلك مرة أخرى، وقد أحست بهذا من تعبيرات وجهه، ومن تصرفات أورسولا.

وتحدثت أورسولا فقالت إن النساء لم يخلقن لخوض المناقشات في عالم المال والاستثمارات، وأنها قد ملّت الكفاح في هذا المجال. فردّت عليها مادلين بأنها لا تعتقد ذلك، ولكن أورسولا اصرت موجهة كلامها الى مارك ومؤكدة له مدى حاجتها إليه ليعمل معها في دار أديناي للنشر، واعتذرت له عما قالت من قبل، لأنها كانت تشعر بالضياع، والتعاسة بعد مقتل بوب. وقالت إنها اعتقدت ان انشغالها بشيء تفعله سوف يجعلها تقبل على الحياة، ولكنها أخفقت في هذا. وأكدت له من جديد أنها في حاجة لعودته للعمل في دار النشر. وغلبها الانفعال فسالت دموعها.

ولو لم تكن مادلين موجودة لما صدّقت أن أورسولا بمثل هذه الرقة. ولكنها ربما كانت تستخدم أسلحتها ضد مارك وليست صادقة فيما تقول.

وتوسلت أورسولا الى مارك ليكتب نيابة عنها مقالاً عن الأبسطة التركية، وأن تتولى مادلين كتابته على الآلة الكاتبة في الصباح. فقالت له أورسولا:

«شكراً يا عزيزي، هذا أكثر مما توقعته، وإنها لبداية رائعة...»

فقاطعها بقوله:

«إنها ليست بداية لأي شيء يا أورسولا، يمكنك أن تسميها تصفية حساب الماضي، إن دار أديناي للنشر هي ملك لك كلها يا عزيزتي، ولا أريد شيئاً منها، هل هذا واضح لك؟»

«لا يمكنك أن تجعلني أفقد الأمل في أنك ستغير رأيك... وسوف تجدني هناك في انتظار عودتك...»

«لن تكون لي عودة، وسوف أكتب لك هذا المقال وكفى... ومن

الأفضل أن تصدقي ما أقوله لك».

ولكن أورسولا ابتسمت قائلة:

«لن أصدّقك إلا إذا قلت لي بصراحة، إنك لم تعد تغار من شقيقك الأكبر، ولا أعتقد أنك تستطيع. لم تستطع في الماضي، ولن تقوله الآن».

ولزم مارك الصمت للحظات طويلة ثم قال لها:

«مات بوب يا أورسولا، وماتت معه أشياء كثيرة... إن لي حياتي الخاصة التي أحياها، وأقول لك بصدق إنها تبدو لي حياة ممتعة، ولا شأن لك مطلقاً بها».

فقالت له أورسولا بقلق وهي تضغط شفتيها:

«سنرى يا عزيزي مارك ما سوف يحدث!»

وبعد أن انصرفت أورسولا، طلب مارك من مادلين أن تطلعه على مدى إتقانها للاختزال، فقالت له إنها سبق أن أبلغته بأن مستواها في الاختزال جيد، وأنها لم تتعود على أن يمليها أحد، ولكنها ستبذل أقصى ما تستطيع. فسألها مارك:

«وهل أنت مستعدة لأن أقوم بالاملاء عليك؟»

«إنه عملي، ولكن من الأفضل ألا تدع أورسولا تسمعك تقول هذا الكلام، فهي لن تظن الأمر مجرد مزاح».

«أين أورسولا الآن؟»

وتدلت خصلات شعر مادلين الطويلة على خديها، وكانت تواقة جداً لاخفاء مشاعرها عنه، وردت بقولها:

«صعدت الى أعلى، ولا اعتقد أنها نامت جيداً ليلة أمس. ضايقها وجود مدفأة الفحم في غرفتها فقمت بإخراجها مما جعل جو الغرفة بارداً، إنها غير معتادة على الضوضاء، فالعبارات تبدأ عملها مبكراً، والأضواء

المنبعثة من زوارق الصيد تزعجها، وأعتقد أنها ظنتها زوارق مهربي المخدرات».

«حالتك المزاجية رائعة. ألا تضايقك مثل هذه الأشياء؟»

فهزت رأسها بالنفي قائلة له:

«أحب الغرف العليا، فهي آمنة وتبعث على الاطمئنان الى حد ما، فمن داخلها تستطيع أن ترى ما بالخارج بدون أن يستطيع أحد أن يراك، ولو كان هذا هو بيتي لما أقدمت على تغيير هذه الغرف!»

«قد لا تكون آمنة جداً مثلما تظنين».

فنظرت إليه وقد اتسعت عيناها وسألته:

«هل تم إغراق أحد من سكان هذا المنزل؟»

إنها لم تستطع أن تبعد عن ذهنها صورة النساء من الحريم اللواتي تم إغراقهن، وردّ عليها مارك قائلاً:

«كلا. ولكنني أعتقد أن نظام الحريم قد طبّق هنا بشدة مثلما كان مطبقاً في أي مكان آخر، وربما كانت بعض النساء غير دقيقات في اختيار الأسلحة التي استخدمنها لتحقيق ما يردن».

وقالت لنفسها إنهن لم يكن فعلا دقيقات، وإن هذا لا ينحسب على الماضي فقط. فأرسولا، مثلا، لم تكن دقيقة في ذلك، ترى هل يدرك هو هذا؟ وتنهدت مادلين وراحت تقلّب صفحات كراسة المذكرات وقالت له:

«إنني مستعدة».

التقت عيناه بعينيها وهو يقول لها:

«انا لست سليمان يا مادلين، لقد سمح أخي لامرأة أن تتحكم فيه لبعض الوقت، ولكننا لم نكن متماثلين على الاطلاق. مهما كان هذا

الذي قالته لك أورسولا، وعندما يحين الوقت لهذا فإنني سوف أرضي نفسي وليس أي شخص آخر».

فقالت له وهي تعض شفتها:

«أعلم هذا، ولكن هل تدركه أورسولا؟»

«انت لست بلا وسائل دفاع مثلما يبدو عليك، والآن هلا نحيّت مخالبك جانباً حتى أنتهي من هذا المقال؟ إن أورسولا هي عملي ولا علاقة لهذا بك، وبوصفك موظفة طيبة فإن مهمتك هي إرضاؤنا».

فردّت عليه وهي مستعدة للكتابة وقالت:

«استعدت جواز سفري، على الأقل، حتى أستطيع مواجهة الموقف إذا ما ازداد سوءاً».

«هذا هو ما تظنين! تركت جواز سفرك فوق مذكراتي، وقد أخذته ووضعته مع جواز سفري، وإذا احتجت اليه فاطلبيه مني، وأنت الملومة بسبب إهمالك».

ولم تردّ عليه، وبدأ يمليها المقال، ودهشت مادلين لغزارة معلوماته، وتحدث المقال عن تدريب البنات على صناعة السجاد من سن الخامسة حتى سن الثامنة عشرة حينما يفقدن المرونة في أيديهن التي تمكنهم من عمل آلاف العقد في السجاد المصنوع يدوياً. كما تحدث في مقاله عن أنواع الأصباغ المستخدمة في صنع السجاد، والتصميمات المختلفة، وكيفية معرفة مستوى جودة السجادة من عدد العقد الموجودة في البوصة المربعة، وشرح كيفية استخدام سجاجيد الصلاة التي تحمل بوصلة توضح اتجاه الكعبة في مكة المكرمة، وهناك ايضاً السجاجيد الكبيرة التي يمكن لأسرة بأكملها أداء فروض الصلاة عليها. واختتم مقاله بهذه العبارة: في تركيا يوجد في كل بيت سجاجيد جميلة تغطي

أرضيته، فالغني يشتري السجاجيد والفقير يصنعها.

واستغرقت مادلين معظم الوقت المتبقي من النهار في كتابة المقال على الآلة الكاتبة. وجلست أورسولا بجوارها وهي تتعجلها لانهاء المقال، وأخذت تراجع كل صفحة تنتهي مادلين من كتابتها.وتمنت مادلين أن تبتعد عنها أورسولا، ولكنها عندما لاحظت استمتاع مارك باهتمام أورسولا بالمقال فضلت أن تتحمل بقاءها.

وابتهجت أورسولا بالمقال، مما جعلها تبدو أكثر إشراقاً وقالت لمارك:

«إنه مقال ممتاز يا مارك، لا بدّ أن تعود الى نيويورك لتتولى أمر العمل، وأعدك بألا يرتبط هذا العرض بأية شروط، كما سأكون في غاية الطيبة وأفعل كل ما تريد. لقد افتقدتك، وذلك بغضّ النظر عن دار أديناي للنشر. لقد افتقدتك بشدة، وإن أنت تصرفت بمهارة ففي إمكانك أن تستحوذ عليّ وعلى دار النشر ايضاً. كنت تريد هذا من قبل، وهو الآن طوع يديك!»

فوقف مارك ونظر الى زوجة أخيه متسائلاً:

«أتعتقدين هذا؟»

«إنني واثقة مما أقول يا عزيزي!»

وتظاهرت مادلين بأنها لا تستمع اليها، ووضعت الغطاء فوق الآلة الكاتبة وحملتها من فوق الطاولة لتضعها على الارض، فتقدم مارك وحملها عنها فشكرته وهي تلاحظ نظرة الشوق في عينيه. ثم قال لأرسولا في هدوء وبدون انفعال أو مرارة:

«اذكر أنك كنت تعزفين نغمة أخرى من قبل.»

«لن تلومني على خداعي لك. كنت شابة وحمقاء يا مارك، واعتقدت، في ذلك الوقت، أن هذا ما أريده!»

«كان هذا فعلاً ما أردته، أردت بوب ودار أديناي للنشر، وحصلت عليهما معاً. أجبرني بوب على التخلي عما أملك، فقمت ببيع حصتي له وفقدت بذلك أي اهتمام نحو دار النشر.وأنا أعني هذا تماماً! إنك تمتطين صهوة جواد ميت يا أورسولا. ولا اعتزم الانطلاق مهرولا لمجرد أنك تطلبين مني ذلك. حصلت على ما أردته، وعليك أن تعيشي مع ثمار رغباتك. إن هذا الأمر لا يعنيني على الاطلاق، ولن أسمح لنفسي بأن أهتم بذلك مرة أخرى».

وابتسم وانحنى لهما، ثم اتجه بسرعة نحو الباب ليختفي، قبل أن تتنبه أي منهما الى ذلك، وبعد عدة ثوان دوى في أرجاء البيت صوت إغلاق الباب الخارجي.

وهمست أورسولا قائلة وهي لا تكاد تفتح شفتيها:

«هل يجرؤ على هذا؟ وما الذي يظن أننا سنفعله طوال فترة المساء؟ أن نقوم بتسليـة أنفسنا؟»

ونظرت مادلين بكآبة الى الباب المغلق وقالت لأورسولا:

«يبدو أننا سوف نضطر فعلا الى هذا، سأبلغ محريماه أن تعد طعام العشاء لاثنين فقط».

فرذت عليها أورسولا بمرارة:

«قولي لها ما تشائين! هذا ان إستطعت، فهي لا تفهم كلمة مما أقوله لها! هذا المنزل صغير كالجحر، وأمامنا ليلة أخرى شديدة البرودة. هناك أوقات أشعر فيها بالكراهية نحو مارك أديناي، ولا بأس أن أقول لك إنني أحس بهذا الشعور الآن».

٧ ـ ابواب الذاكرة

ذهبت أورسولا إلى فراشها في العاشرة مساء، ولم يكن هناك ماء في الطابق العلوي، فطلبت من مادلين أن تحضر لها كوباً من الماء المثلج، وقالت لها:

«لن أمضي ليلة أخرى هنا لأجل خاطر أحد. إنه لأمر سيء أن يذهب المرء إلى فراشه في الوقت الذي تأوي فيه الطيور إلى أعشاشها، بدون أن يتعرّض للموت من شدة البرد والألم. سوف أبذل جهدي لأنال قسطاً من النوم!»

ثم تنهدت بقوة وأضافت:

«ما الأمر يا حبيبتي؟ ظللت عابسة طوال المساء. أما زلت غير مقتنعة بأنني كنت مضطرة للذهاب إلى أنقرة؟»

«كلا».

«هل تعلمين أنك مثل حماتي تماماً. ماتت من قلة النوم. وظلت تزعم أنها لا تشعر بالتعب! لقد تطلب الأمر بعض الوقت لكي يتعود بوب على طريقة تفكيري!»

فقالت لها مادلين بهدوء:

«ولكنك حققت هدفك».

«حققت هدفي طبعاً، ولن يحقق مارك لنفسه أية فائدة من وراء استخفافه بي، لقد ولدت ونشأت في برونكس، وصدقيني إن التعامل

مع أسرة أديناي هو كسب كبير في حدّ ذاته، لقد اكتسبت خبرة كبيرة من مجرد هذا التعامل».

واستقرت عيناها الزرقاوان على وجه مادلين وأضافت قائلة:

«لا تتدخلي في هذا يا عزيزتي، فليس لك مكان في مجتمعي، وليس لمارك العزيز هو الآخر مكان، ولكنه سوف يعود إلى نيويورك في النهاية عندما يصبح الطعم أكثر إغراء بالنسبة إليه».

وأخذت مادلين منها الكوب الفارغ وقد ارتسم على وجهها تعبير تعمدت أن يكون غامضاً. وقالت لها أورسولا:

«أغلقي الباب خلفك يا حبيبتي مادلين، فإنني أسمع صرير سريرك عندما تتركين الأبواب مفتوحة».

حيتها مادلين وتركتها وهي لا تحس بأي أسف لذلك، فهذا أفضل لأنه يتفق مع الحالة المزاجية لمادلين، ويرضي إحساسها بقيمتها الحقيقية، وتمنت لو أن كل الأبواب أغلقت على أورسولا أديناي!

وعندما دخلت مادلين غرفتها وجدتها باردة لأن المدفأة لم يتم تشغيلها فيها منذ الصباح الباكر، وكانت رياح البوسفور الباردة الرطبة تقتحم الغرفة من النافذة المفتوحة. إن اسطنبول في الشتاء لها جوانب جاذبيتها، ولكن الرياح الباردة القادمة من روسيا ليست أحد هذه الجوانب. وكانت تمر بعض الأيام التي يشيع فيها الدفء، وتشرق الشمس في اسطنبول، وفي الليل يضيء السماء الهلال والنجوم المتناثرة كاللآلىء. وأعطت مادلين لنفسها صدمة عقلية مثلما فعلت عندما عانقها مارك وهما في العبّارة. وتذكرت، بطريقة عقلية باردة، أن أورسولا كانت تعيد طلاء شفتيها بأحمر الشفاه في

الليلة الماضية هل يجب عليها أن تشرح لأورسولا كيف تذوب وعظامها داخل جسمها عندما يمسّها مارك أديناي؟

نامت مادلين نوماً متقطعاً وتلك الأفكار تجول في رأسها وبدت لها عقارب الساعة المضيئة لا تتحرك وجاء منتصف الليل وولّى، والنوم العميق مازال يهجر جفنيها. وفكرت أن تقطع الوقت في القراءة، ولكنها لا تستطيع النزول إلى الطابق السفلي للبحث عن كتاب، في هذا الوقت المتأخر من الليل، وفضلت الانشغال بشيء آخر، ولو اقتضى الأمر لأن تعدّ أغناماً وهمية!

وسمعت صوت الباب الخارجي يفتح، لقد عاد مارك إلى البيت. وسارعت بارتداء روب فوق ملابس النوم، ونزلت إلى الطابق السفلي ونادت عليه:

«مارك، هل حضرت؟»

«وهل تظنين أن لصّاً اقتحم البيت؟»

ووقفت أمام باب المطبخ وقد انعقد لسانها عندما رأته، وراحت تتساءل بينها وبين نفسها عما إذا كان هناك شيء من الطعام ليتناوله، كما تساءلت عما كان يفعله خارج البيت، وتمنّت لو أنها كانت معه تشاركه ما يفعل. وسألته وهي تقترب خطوة أو خطوتين داخل المطبخ:

«هل أعدّ لك شيئاً من الطعام؟»

وأشار إلى ملابس النوم التي ترتديها وقال لها:

«أبهذه الملابس تعدين الطعام؟ هل تناولت طعامك أنت؟»

«منذ ساعات، هناك بعض البيض إن شئت».

فجلس متداعياً على الكرسي وقال لها:

«أفضل القهوة».

وأعدّت القهوة بسرعة على الطريقة الأمريكية. ووضعت قدحين على المائدة، فصب القهوة وقدّم لها قدحاً وهو يبتسم قائلاً:

«ما كان يجب ان تنتظريني. انا لم أعتد على أن تلبى كل حاجاتي بهذه الطريقة».

فردّت عليه بقولها:

«هل أعدّ لك شيئاً من الطعام، أقصد إن كنت تحتاج إلى شيء... إن كنت جائعاً؟»

فوضع قدحه على المائدة، ونهض ليقف خلفها ثم قال لها:

«هذه طريقة غير موفقة في التعبير، ولكن ما دمت قد سألتني فإنني مازلت أحتاج إلى شيء، وإن كنت لا ترغبين في هذا فما كان يجب عليك، يا جميلتي الصغيرة النزول من الطابق العلوي لكي تدفعي بالأفكار إلى رأسي!»

وأمسك بذراعها وجذبها نحوه. ووجدت نفسها تطوقه وهي تهمس:

«أوه، مارك، الوقت متأخر جداً...»

«لم أطلب منك النزول إلى هنا، وما كان يجب عليك أن تستقبليني بهذه الحرارة وفي هذه الساعة من الليل!»

فنظرت إليه نظرة اتهام وهي تقول له:

«لا عجب أنك متعب، لا بد أنك كنت ترقص!»

«ولم لا؟ الراقصات أكثر كرماً من كل اللواتي عرفتهن في العالم. فما رأيك يا مليحة، هل ترقصين لي وتحصلين على مكافأة طبقاً للتقليد المتبع؟»

«لا أدري».

وابتعدت عنه بسرعة وهي تخشى ما قد يحدث، وأحست بالخوف من

نظراته وهو يتفحصها بصورة فهمت المقصود منها، ولكن قوته تغلّبت عليها، ثم تركها فجأة لكي تجلس أمام قدح القهوة الذي برد. وقالت:

«إنني آسفة».

«ولمَ؟ ألأنني أريدك وأعرف أنك تريدينني؟»

«كلا، لأنك لست مارك بك، ولا يمكنك أن تحصل مثله على كل ما تريد».

فنظر إليها وهو يضحك ضحكة قاسية ممزوجة بالغضب وقال لها:

«أنت دائماً شاعرية، اذهبي إلى فراشك يا مادلين قبل أن آخذك إلى فراشي، فإنني في حالة مزاجية تجعلني أنسى أي شيء فيما عدا أنك جميلة، وأن أورسولا اختارت وصيفة لا تستطيع أن تحمي حتى نفسها».

« مارك، كلا أرجوك!»

فنظر إليها متسائلاً:

«هل أخيفك؟»

«قليلاً، ولكنني لا أعبأ بهذا، فأنا أملك العقل مثلما أملك الجسد».

«عزيزتي مادلين؟ اذهبي إلى فراشك!»

فقالت له مرة أخرى وهي مضطربة:

«إنني آسفة».

فصب لنفسه قدحاً آخر من القهوة وقال لها:

«لا تأسفي، فأنت على صواب، إنكن عندما تحببن الرجال فإنكن تردن مشاركة أحباءكن العقل والجسد معاً، وينتهي الأمر بزواجكن منهم».

ونظر إليها من طرف عينه وهو يقول لها:

«ألا ترين أنني الآن لا أعبأ بعقلك، ولا يهمني ما إذا كان لك عقل أم لا؟»

فرمقته في رعب وقد ابيّض وجهها، وسألته محاولة تغيير الموضوع:

«هل أنت جائع؟»

فهزّ كتفيه قائلاً:

«أعدّي لي الطعام إذاً، ولكن لا تتوقعي أي شكر، فالطريق إلى قلبي لا يمر من خلال معدتي!»

وضعت المقلاة فوق الموقد وكسرت بيضتين فيها. وبعد أن نضجت البيضتان وضعتهما في طبق أمامه، وسألته عما إذا كان يريد بعض شرائح من الخبز، فجذبها من يدها وقربها منه ثم قال:

«مادلين، إذا عانقتك مرة أخرى، هل تذهبين إلى فراشك؟»

ولم تجد الكلمات لترد عليه، واتسعت عيناها وأخذ قلبها يدق بقوة وهو يمسك يدها، ولم تحاول التحرك، وإنما ظلت مستسلمة له وهي تنتظر أن يتركها أو أن ينفذ تهديده، وعندما عانقها كانت لمساته بنعومة الثلج المتساقط على وجهها وقال لها:

«مليحة يا حبيبتي، لا أريد ايذاءك، برغم أن هذا في استطاعتي أليس كذلك؟»

فاقتربت منه اكثر وهي تقول:

«لست بخائفة».

فضمها إليه بقوة قائلاً:

«يجب أن تخافي، فأنت تعيشين في أحلام شاعرية عن الحب».

ولامس وجهها بأصابعه قائلاً:

«قد تجدين الواقع مخالفاً لاحلامك».

وسألته وعيناها مغرورقتان بالدموع:

«مارك، أتعتقد أن بإمكاني أن أحبك؟»

هزّ رأسه ببطء قائلاً:

«ابقي مع أحلامك الشاعرية. تصبحين على خير يا حبيبتي، وشكراً لوجبة ما بعد منتصف الليل».

ونظرت إليه في توسل، ولكن تعبيرات وجهه الصخرية لم تتبدل، إنه لن يتراجع عن موقفه، فخرجت من المطبخ وبدأت تصعد درجات السلمّ في تباطوء، ولاحظت أنه يتجه نحو السلم ويتوقف، ثم قال لها وهو يبتسم إنه يعتقد أن لها عقلاً جميلاً! واستدارت نحوه قائلة:

«انت لا تعبأ بما أفكر فيه، أو أشعر به، أو حتى ما يمكن أن أفعله. فأنت تفكر في النساء، تماماً كما لو كنت ماروك بك، كممتلكات غير ثمينة!»

«أحسنت!»

وانحنى لها بالطريقة التركية واضعاً يده أولاً على قلبه ثم على جبهته وقال لها:

«اهربي يا مادلين، فما زالت الفرصة أمامك!»

فرمقته بنظرة تنم عن الشعور بالصدمة والغضب الشديد، وأسرعت بالصعود فأصطدمت بأورسولا التي كادت تسقط على الأرض، وسألتها أورسولا قائلة:

«ما الذي تفعلانه؟ أعتقد أنها كانت أمسية غير موفقة، هل لنا أن نذهب جميعاً إلى الفراش، كلّ إلى فراشه؟»

وأسرعت مادلين بصعود ما بقي من الدرج ودخلت إلى غرفتها وقامت، لأول مرة منذ مجيئها إلى هذا البيت، بإغلاق مزلاج باب غرفة نومها بإحكام خلفها. وراحت تسائل نفسها عما دفعها إلى النزول إلى الطابق السفلي؟ كان يجب عليها أن توضح له كرهها للطريقة التي

ينظر بها إليها، ولكنها في نفس الوقت هي أبعد ما تكون عن أن تكرهه بسبب هذا. لقد شجعته على الاعتقاد بأنها تطلب اهتماماته بها. لقد عانق أورسولا في اليوم السابق، فهي متأكدة من هذا، ومن يدري كم عدد الراقصات اللواتي عانقهن في تلك الأمسية، وبرغم هذا فإنها ارتمت بين ذراعيه وقد تملكتها السعادة بأن تأخذ دورها في الصف! لابدّ أنها جنت، بل أصابها شيء أكبر من الجنون، هل فقدت كبرياءها؟

وجلست على حافة سريرها الذي أخذ يئن كما لو كان يحتج على تصرفاتها، ووضعت كفيها على خديها المحترقين وراحت تواجه الحقيقة التي لا مفر منها، فهي ليست مجنونة، إلاّ إذا كان الحب هو نوع من الجنون. إنها تحبه حباً عميقاً لا رجعة فيه! وما عليه إلاّ أن يشير بأصبعه لكي تتبعه إلى آخر الدنيا مهما فعل بها. لقد حدث لها هذا وهي التي لم تعرفه إلا منذ وقت قصير جداً. فما الذي سيجري عندما تعرفه لفترة أطول؟ لن يكون لها أي عذر في عدم العودة إلى لندن، ترى ما الذي هي مقدمة عليه؟

وفي الصباح لم تكن مادلين قادرة على تركيز ذهنها عندما سألتها أورسولا عن مكان مارك، فطلبت منها اعادة السؤال مرة أخرى. فقالت لها:

«إنني أسألك، هل رأيت مارك هذا الصباح؟ إنه لا يقوم بدوره كمضيف كما يجب، فأنا لم أكد أراه إلاّ لماماً منذ مجيئي».

«إنه مشغول بكتابة بحث عن الفنان المعماري العثماني سينان».

«أوه، هل يفيدنا هذا البحث؟»

«لا أعتقد هذا، ولا أظن ان مارك راغب في إعطاء بحثه لأية مجلة، فهو يريد نشره في كتاب».

ونظرت إليها أورسولا بتمعن وقالت:

«يبدو أنك تعرفين الكثير عنه! هل سيدرّ عليه مالاً؟»

فهزت مادلين كتفيها استخفافاً وقالت لها:

«لا أعتقد أنه يهتم بالناحية المالية».

«ربما تكونين على صواب في هذا، فمارك، وهو أمر غير طبيعي، لا يكترث بجمع المال، وهذا هو السبب الذي جعلني أختار بوب، إلاّ أن مارك له مميزات أخرى. فهو إن وجد الشخص المناسب الذي يسانده يستطيع أن يجني مليون دولار بدون أدنى جهد. فله عقلية ممتازة كما أنه يعرف كل ذوي الشأن، وهو يحظى باحترام شديد في الولايات المتحدة. أليس هذا غريباً؟ إنني لا أعرف السبب في هذا، فمارك لم يقم بأي عمل ذي أهمية، كما أنه لم يشغل أي منصب مرموق».

ورأت مادلين من الأفضل ألاّ تدافع عن مارك بطريقة مكشوفة، وسألت أورسولا عما كان يفعله مارك قبل مجيئه ألى تركيا. وتململت أورسولا كما لو كانت تعبر عن استيائها وهي ترجع بالذاكرة إلى الأفعال التي أقدم عليها شقيق زوجها، وقالت:

«كان يلقي محاضرات في إحدى الجامعات، ولم نشاهده أنا وبوب منذ زواجنا إلا نادراً. كان أمراً محرجاً».

«أوه، ولماذا؟»

«كان هناك نوع من التنافس بين الشقيقين، وقد نشأ على الاعتقاد بأن العمل الشاق والظروف الرغدة هي كل شيء في الحياة. وكان مارك يشق طريقه بصورة أفضل من بوب، فقد كانت حياته الجامعية أفضل، كما كان يلعب كرة القدم لصالح كليته وهذا مالم يفعله بوب. وعندما عرفتها كان أبوهما قد توفى منذ قليل، وهما يديران

العمل سوياً، وكان واضحاً أنهما لن يستمرا في هذا».

وقالت مادلين:

«وكان بوب هو الأكبر ولذلك فإنه هو الذي كانت له السيادة، أليس كذلك؟»

«بوب هو الأكبر، ولكنه كان سيستمر بمشاركة أخيه في العمل لو لم أدخل حياتهما، وأضع نهاية لهذا».

«إنني في دهشة، كيف سمح لك مارك بهذا؟»

فنظرت إليها أورسولا بتعجب وقالت:

«كان يحبني، كان الاثنان يحبانني، وكان أمراً مثيراً أن يكون لي حبيبان من أسرة واحدة... ولم أستطع أن أقرر أيهما أختار، ولم أشأ الاختيار في الواقع، فقد كان كل منهما يقدم لي العطور والهدايا التي غرقت فيها حتى أذني. وكان يمكن لي الاستمرار في هذا إلى الأبد، لولا أن تدخل أبي طالباً مني أن أقرر أيهما أختار خلال أسبوعين، وإلا فإنه سيرسلني في رحلة طويلة لأوروبا حتى أنساهما معاً. كنت أدرك أن أبي على حق، ولكنني كنت أريدهما معاً. كان مارك أكثر ميلاً للمرح وفيه شيء من تحجر القلب، ولكن بوب كان أكثر إخلاصاً، ولا يصرّ على رأيه دائماً. لذا اخترته في النهاية لأنني أدركت أن في إمكاني أن أجعل منه شيئاً، وقد نجحت في هذا».

ولم تكن مادلين تعيرها أذناً صاغية وسألتها:

«هل عرض عليك مارك الزواج منه؟»

وقالت مادلين لنفسها إنه لو كان مارك قد فعل هذا فإنه لا بد أن يكون على درجة شديدة من الحب لزوجة أخيه.

ودارت أورسولا برأسها لتنظر إلى مادلين قائلة:

«لماذا تسألينني هذا السؤال؟ هل تناقشتما بشأني؟»

فهزّت مادلين رأسها قائلة بجفاف:

«كلا، فمارك لا يناقش أشياء كهذه».

وبدا الارتياح على أورسولا التي أجابت:

«إنه فعلاً لا يتحدث في الأمور التي تخصه».

وأضافت أورسولا قائلة بلهجة من يحاول أن يخفي عواطفه:

«لقد اعتقدت دائماً أنه إذا قررت فتاة ما، ألاّ تقبل خطبة شخص معين، فمن الأفضل أن توضح ذلك منذ البداية، ولهذا قلت لمارك إنني سوف أتزوّج بوب، وهذا ما حدث!»

«مسكين مارك!»

«أوه، لم يكن ذلك هو نهاية الأمر، كان علينا، بوب وأنا، أن نتغلب مع مارك على بعض المشكلات في دار أديناي للنشر. وقد عارض كل إجراء اتخذناه، ولم يكن يصدّق أن بوب أخذ منه شيئاً. وبدأ اسمه يظهر في أعمدة، القيل والقال، في الصحف مقترناً بأسماء نساء متعددات، وقال لي بوب إن هذا يبينّ لي أنه لم يكترث برفضي إياه. وبدأ الاثنان يتشاجران أيضاً حول سياسة إدارة دار النشر. وقد اقتنع بوب برأيي بضرورة التوسع أو الموت!»

وقالت لها مادلين بهدوء:

«إنني لا أتصوّر أن مارك يفضّل النشاط الضيّق المحدود».

وأقرّت أورسولا بهذا قائلة:

«ليس هذا بالضبط، ولكنه لم يتفق معنا عندما أردنا أن نتناول السياسة القومية فيما ننشره، وكان يعتقد أن فكرة اشتغال بوب بالسياسة في النهاية هي فكرة مضحكة!»

«هل قال هذا؟»

«كان يعلو صوته بهذا الكلام في كل اجتماع نعقده! وكان أمراً غير محتمل، مما جعل بوب يغضب غضباً شديداً، ويقول إنه يجب على أحدهما أن يبيع نصيبه في دار النشر. وذهبت إلى مارك وطلبت منه أن يبيع لي نصيبه، وهكذا كان».

ولاذت أورسولا بالصمت لفترة طويلة، ثم عادت فجأة لمواصلة حديثها قائلة:

«ولم أره كثيراً منذ ذلك الحين، وأعتقد أن هذا ليس من الانصاف في شيء، لأنني كنت أعلم أنه مازال على حبه لي. وقد قابله بوب مرة وقال لي إن مارك يلومني لأنني أخرجته من دار النشر، وأنه لو كان بوب حكياً لا تخذ قراراته بنفسه ولما سمح لي بإبعاده عن دار النشر...»

وسألتها مادلين عما كان يفعله مارك أنذاك فأجابتها قائلة:

«حصل على وظيفة مدرس، فهو فنان معماري متمرس، كما أنه فوق كل شيء على درجة كبيرة من الخبرة في مجال الفنون الجميلة. وكان في الامكان الافادة بخبرته هذه في دار أديناي للنشر لو كانت لديه الرغبة في هذا، وهذه المرة سأبذل أقصى جهدي لحمله على هذا!»

وأمسكت مادلين ببعض المجلات التي احتفظ بها مارك على رف مكتبته وأخذت تقلب صفحاتها بأصابعها بدون النظر إلى ما في داخلها ثم قالت:

«إنه يقرأ المجلات، ولابد أن يكون ميالاً لأن يفعل هذا».

فردت عليها أورسولا قائلة لها إن مارك ظل يرسل إليهما الرسائل قائلاً إنهما يسيران وراء فكرة غامضة وخاطئة، وأن بوب

تملكه الجنون عندما قرأ أحد رسائل مارك وقال إنه لا يستطيع الاستمرار في العمل بنفس الطريقة التي يعملان بها، وأنه يحتاج إلى وقت يخلو فيه إلى نفسه كي يتدبر أمره ويقرر بنفسه ما يراه. وقال لي إنه يفتقر إلى بعد النظر، وكنت أجادله، فقد كنا نصعد مباشرة نحو القمة! وكانت تلك هي آخر مرة يبدي فيها شكوكه في كل شيء ننجزه سوياً! ولكن بوب لم تكن لديه ثقة كبيرة بنفسه. وخرج يوماً من البيت وهو في شدة الغضب قائلاً إنه سيطلب تصريحاً بالسفر إلى فيتنام لتغطيه تطورات الحرب الدائرة هناك، وأن باستطاعتي أن أدير العمل بدونه بنفس الكفاءة إلى أن يعود. وقد لقي حتفه بعد شهرين من ذهابه إلى هناك.

وصاحت مادلين قائلة:

«كم هو فظيع بالنسبة إليك!»

وهزت أورسولا كتفيها استخفافاً وقالت:

«لم يكن هناك أسوأ من هذا، وأشكر الأقدار التي مكنتني من أن أواصل حتى الآن القيام بتحمل معظم أعباء المسؤولية في مجموعة المجلات التي لم تمت معه. ولكن الأمر لم يكن سهلاً بالنسبة إليّ. فالأمر يختلف عندما يساندني رجل حتى لو كنت أنا التي تتخذ معظم القرارات الهامة. أما بعد أن أصبحت المسؤولة الوحيدة فإن الكثيرين لم يقبلوا هذا. وهناك دائماً تلك القلة التي لا ترحب بالعمل تحت إمرة امرأة، وهذا هو السبب الذي يجعلني محتاجة إلى مارك، وهو ما يجعلني أيضاً مصممة على أن أستحوذ عليه!»

ولاحظت مادلين أنها كانت تتململ وهي تتحدث عن الاستحواذ على مارك، وشعرت بإشفاق نحوها. وساورتها الشكوك في أن

أورسولا لها صلة بالقرار الذي اتخذه زوجها بالذهاب إلى فيتنام، وأنها تخفي شيئاً ما عنها، وهذا وحده يكفي لالقاء الظلال على كل ما أنجزته.

وتركت مادلين المجلة التي كانت في يدها، وخاطبت أورسولا بقولها:

«ما كان يجب أن نكون في بيته. إنني لا أرى أي سبب يمنعه من أن يحيا بالطريقة التي يريدها. إنني أكره وقوفنا في طريقه».

«ليس من شأنك أن تقولي هذا. فأنا زوجة أخيه، ومن المؤكد أنه لا يرغب في نزولي بأحد الفنادق في حين أن لديه مكاناً متسعاً لاقامتنا».

«ولكنه لم يطلب منا الاقامة معه».

«كلا، وأظن أنه كان يخشى أن يطلب مني الحضور إلى هنا، بدأت أعتقد أنني ضيقت الخناق عليه وحاصرته في ركن! وسوف يعود إلى نيويورك بأسرع مما نظن!»

وتمنّت مادلين ألاّ يفعل، ولكن لم تجد مفراً من الاعتقاد بأن أورسولا ربما تكون فعلاً على حق. فقد كانت دار أديناي للنشر تعني الكثير بالنسبة إليه. وهذا يمكن أن يتكرر من جديد. ورأت أن من الحماقة دفعه للوقوف في وجه أورسولا إن كان هذا هو ما يريده فعلاً.

وعاد مارك بعد الظهر، وكانت أورسولا في غرفتها، في حين كانت مادلين جالسة تقرأ كتاباً في غرفة الملابس، ورفعت رأسها عن الكتاب ورأته واقفاً بالباب يرقبها ويدرس ملامحها في هدوء، فصاحت قائلة:

«أوه».

«تبدين في حالة تكاسل لذيذ. أليس لديك شيء تفعلينه؟»

«كلا».

«يمكنك إذاً أن تكتبي شيئاً لي على الآلة الكاتبة. فلا يمكنك بناء حياتك كلها على الأحلام. حاولي كتابة هذه المذكرات وإعادة تنظيمها، وبعد انتهائك منها، يمكنك أن تطلبي المزيد من المذكرات».

«هذا إن كنت ستبقى هنا لكي أطلب منك!»

وتحرّكت بعصبية نحو الآلة الكاتبة، ورفعتها على الطاولة وفتحتها، وقال لها مارك في رقّة:

«سوف أسترد ما تنتهين من كتابته من وقت لآخر».

وردت مادلين بأسلوب مهذب:

«السيدة أديناي موجودة في غرفتها بالطابق العلوي».

«سأراها غداً، وأرجوك إبلاغها هي ومحرياه بأنني سأتناول طعام العشاء الليلة خارج المنزل، وذلك بناء على ارتباط سابق لا أستطيع الافلات منه».

وأطرقت مادلين شاعرة بخيبة أمل ومرارة لأنه سيخرج مرة أخرى. وأضاف مارك قائلاً:

«ولا أريد أن أراك مرة أخرى تجلسين بدون عمل، وإن أردت أن أنوه بك لقيامك بكتابة رسالتي الجامعية على الآلة الكاتبة، فيجب أن تبذلي الجهد في هذا السبيل».

وابتسم فجأة وهو يربت على كتفها وقال:

«وبالاضافة إلى ذلك فإن هذا هو الشيء الوحيد الذي سيبعد أورسولا عنك، إنها سوف تنفجر من الغيظ عندما تعلم أنها ستمضي الليلة أيضاً وحيدة بدون أن تجد من يجالسها».

٨ ـ كيمياء العلاقة

أخذت مادلين تعمل في اعداد مذكرات مارك كأن حياتها تتوقف على هذا العمل. بينما راحت أورسولا تبسط نفوذها وأمتعتها وأدواتها الخاصة في شتى أرجاء البيت، مما سبب الضيق الشديد لمادلين. أما مارك فلم يبد أنه لاحظ ذلك الغزو، وكان يغدو ويروح متجنباً الخوض في المجادلات ببراعة، كانت تحسده عليها مادلين، بل كان نادراً ما يتكلم.

وساورت مادلين الشكوك في أنه هو و أورسولا كانا أحياناً ينتظران ذهابها الى فراشها لكي يتحدثا سوياً. وتشعر بنتيجة تلك المناقشات منعكسة على الحالة المزاجية لأورسولا. وجاءت أيام شعرت فيها مادلين بنيران الغيرة الشديدة من أورسولا التي كان مارك، كما ظنت هي، يبدي إعجابه بصفاتها الجمالية، مما ملأ قلبها بالمخاوف. إلاّ أن أورسولا كانت تحضر عادة لتناول طعام الافطار وقد تملّكها الغضب الشديد، مما يوحي بأن مارك لم يقبل بعد العودة معها الى الولايات المتحدة.

وفي أحد الأيام لاحظت مادلين، وهم على مائدة الافطار، أن أورسولا تحاول إخفاء دموعها التي انهمرت على خديها منذ قليل،

ولما سألتها عما حدث قالت أورسولا:

«لا يريد أن يفهم مدى احتياجي له، وأنا مستعدة لفعل أي شيء لكي أحمله على العودة الى حياتي، ولا أستطيع الاستمرار في الحياة وحدي، في حين أنه لا يعبأ بهذا على الاطلاق!»

ولاذت مادلين بالصمت محاولة بدون جدوى، البحث عن كلمات لطيفة. لكن يبدو أن أورسولا لم تلحظ صمتها وأضافت قائلة:

«ما السبب الذي يعتقد أنني جئت من أجله الى تركيا؟ كان يجب أن أراه مرة أخرى! ولو أنه عاد فإن الأمور تختلف عندئذ، ولكنه لا يصدقني!»

إلا أن مادلين قالت لها:

«ولكنك لم تذهبي الى أنقرة بحثاً عنه».

فطرفت أورسولا رموشها وقالت:

«وما علاقة هذا بموضوعنا؟ ذهبت الى هناك لأنني كنت أتوق لمقابلة صديق قديم يعمل ضابطاً ويرغب في الزواج مني، ولكنه اشترط ألا ترتبط الزوجة بعمل نظراً لأنه كثير السفر الى الخارج. واقترح أن أبيع دار أديناي للنشر، ولكنني لم أقبل هذا، لأن الدار بدأت أخيراً تحقق الأرباح الفعلية، إنه يطلب مني أكثر من اللازم، ولهذا قلت له لن أبيع دار أديناي للنشر، فهي ملكي وستظل؛ وحتى مارك لا يمكنه تجريدي من ملكيتي، برغم أنني سأعرض عليه منصباً مرموقاً لارضائه، ولكن السلطة الفعلية ستظل دائماً في يدي!»

وتلاشى الشعور بالتعاطف الذي بدأت مادلين تحس به نحوها، وتساءلت بينها وبين نفسها: هل هذا هو كل ما تعرضه على مارك؟ منصباً كبيراً في حين يبقى كل شيء بين يديها النهمتين؟ ألا تدري أن

مارك لا يمكنه أن يرضى بهذا؟ إن أورسولا ليس لديها أي حب تمنحه إياه، وكل ما يعنيها هو كيف تستغله وتطوّعه لارضاء نزواتها، إنه استعراض سقيم للأنانية.

وقالت لها مادلين بصوت مرتفع:

«مارك لن يوافق مطلقاً على المركز الثاني».

«لن يشعر مطلقاً بهذا، فأنا أعرف كيف أرضي غروره، فهو لا يختلف كثيراً عن أخيه!»

وحاولت مادلين اقناع نفسها بأن مارك لن يستسلم لمطامع أورسولا، ولكنّها تعلم أنّ أورسولا تتحدث بطريقة مقنعة، كما أنّ مارك ربما يعتقد أنه يدين بهذا لأخيه عندما يأخذ مكانه في دار النشر التي تحمل اسم العائلة، وعندئذ تكون أورسولا قد فازت ويكون مارك قد خسر استقلاله الذي ناله بصعوبة.

ولم ينجح انشغالها بالعمل في تخفيف حدّة الغضب الذي ولّدته في نفسها تلك المناقشة بينها وبين أورسولا. وقد أبلغتها محرماه، مستعينة ببعض الكلمات والاشارات، بأن أورسولا ترغب في تناول طعام الغذاء في غرفتها، وهذا جعل مادلين لا تستطيع كتمان فرحها الذي انعكس في ملامحها وصوتها، وأبلغت مادلين أورسولا بأنها ستخرج في جولة، فوافقت مما جعل مادلين تسرع بالخروج قبل أن تغيرّ رأيها، وأخذت معها معطفها وحقيبة يدها وكانت الشمس ساطعة، وتملكتها السعادة لأنها سوف تستمتع بالشمس.

واستقلت مادلين العبّارة وراحت تفكّر فيما ستفعله خلال الساعات القليلة التي ستمضيها وهي مستمتعة بحريتها. وقد جعلها عملها في كتابة مذكرات مارك تتوق لأن ترى بنفسها أهم أعمال

الفنان المعماري سينان وهي السليمانية وهي عبارة عن مجمّع تذكاري أقامه تخليداً لذكرى سليمان، وتشمل أضرحة السلطان وسينان وروكسلان، كذلك أكبر مسجد في المدينة والأبنية الأخرى التي يتألف منها المجمّع، وهي المدرسة والمطبخ العمومي وغيرها.

وتقدمت مادلين من جسر جالاتا معتقدة ان هذا هو الطريق الصحيح، ولكنها بلغت مسجداً آخر وسألت امرأة عجوزاً عن السليمانية، فأرشدتها الى مكانها. وتقدمت في الطريق الى أن رأت المئذنة العملاقة للمسجد وقبته الضخمة، فأسرعت الى الجانب الآخر من الطريق، ووجدت نفسها تقف أمام أحد المطاعم تنظر حائرة الى قائمة أسعار الأطعمة وهي لا تعي حرفاً واحداً منها. ولاحظ صاحب المطعم حيرتها فدعاها للدخول بابتسامة أدخلت الارتياح الى نفسها، وطلبت لحماً مشوياً، وأحسّت بالبهجة وكأن عبئاً ثقيلاً انزاح عن كاهلها وهي تستمتع ببضع ساعات بعيداً عن أورسولا.

وفجأة، وأثناء تناولها الطعام، جلس شخص الى جوارها فالتفتت نحوه بسرعة، وقد أنبأها قلبها بمن هو قبل أن تراه بعينيها، إنه مارك الذي قال لها وهو يبتسم:

«ما الذي تفعلينه هنا وحدك؟»

«ولماذا لا أخرج وحدي. بقيت داخل البيت طوال الأسبوع كله».

وكرر سؤاله لها قائلاً:

«أسأل ما الذي تفعلينه وحدك؟»

«أصيبت أورسولا بانهيار ولزمت غرفتها».

«ألا تخافين أن يختطفك رجل ممن يبحثون عن الوجه الحسن؟»

«أوه مارك، وهل ستفعل أنت ذلك؟ خرجت للبحث عن مسجد

سليمان».

«وهل هناك سبب محدّد لهذا الاختيار؟»

أجابت وهي تردد بعض المعلومات التي ذكرها في مذكراته:

«طبعاً. فهناك مراكز قليلة يمكن مقارنتها بالسليمانية في اتساعها وفخامتها وروعة نقوشها، والانسجام الذي يجمع بين مختلف أجزائها. أرغب في مشاهدة هذاالمكان الرائع بنفسي، وبالاضافة الى هذا، أصبحت مغرمة بأعمال سينان».

وقال لها وهو يتناول طعامه الذي قدم اليه:

«إذاً سوف تشاهدينها، وسوف أصحبك الى المتحف الاسلامي الذي يشغل مكان المطابخ القديمة للمسجد».

وشكرته مادلين ثم سألته:

«ما السبب في إلحاق المطابخ بالمساجد القديمة؟ هل كانت تستخدم كأديرة أيضاً؟»

«بعضها ينقطع فيه الناس للعبادة، والاسلام يوصي بالتحلي بأعلى مستويات الجود والكرم، وكان أي فرد يستطيع أن يتناول وجبة ساخنة مجانية من المطبخ الملحق بأي مسجد، وذلك قبل أن تتولّ الدولة تلك المهمة، وما زال هذا التقليد متبعاً في عدد قليل من المساجد وخاصة في مسجد أيوب».

وانتهت مادلين من تناول طعامها، وجلست تستمتع بمشاهدة مارك وهو يتناول طعامه وهي في غاية السعادة.

وسألته:

«كم من الوقت ستمضي السيدة أديناي معك؟»

«وقتاً طويلاً».

«ما رأيك في تناول قطعة من البقلاوة، انها مصنوعة من رقاق العجين ومحشوة بالبندق ومشبعة بمحلول سكّري».

«هل تكلف هذه الوجبة كثيراً؟»

«ولماذا تسألين؟ أليس معك ما يكفي من نقود؟»

«ليس معي سوى القليل برغم أنه لم تتح لي فرصة إنفاق الكثير من المال!»

ورمقها بنظرة ملأت نفسها بالضيق وقال لها:

«بذلك يا جميلتي تتيحين الفرصة للرجال الغرباء لالتقاطك. إذ لا ينتظر في مثل هذه الظروف أن تستطيعي تسديد ثمن وجبتك!»

فتحركت في قلق على كرسيها الخشبي وقالت:

«كلاّ سأسدد الثمن، فمن غير الانصاف أن تسدده أنت.»

«فعلاً».

انتفض قلبها في صدرها عندما سمعت منه هذا الردّ البارد، وقالت له وهي تحوّل مجرى الحديث:

«اعتقد أنك لا ترغب في بقائنا بمنزلك!»

«لا تقلقي لهذا يا مليحة، كيف تسير عملية كتابة المذكرات؟»

«أوشكت على الانتهاء».

سدّد مارك ثمن الوجبتين وصحبها الى خارج المطعم. فاخبرته ان شرطي المرور ساعدها في عبور الطريق وهي قادمة، فقال لها:

«لن تكوني آمنة بخروجك بمفردك، فأنت الآن في مرحلة أكبر من مجرد أن يضعك المرء في عينيه!»

«تقصد أنني جوزه وأن أعود الى وضعي المتدنّي كامرأة! إنني أستطيع أن أعتني بنفسي».

«كونك جوزد فهذا أمر حسن، ولكن حان وقت تخرّجك وانتقالك الى المرحلة التالية لتصبحي إكحال، أي الناجحة، ألا تعتقدين ذلك؟»

حاولت أن تتجنب النظر اليه، وهي تشعر بالارتياح لأنه لن يتمكن من إدراك مدى استعدادها لأن تصبح بسهولة أي شيء يريده.

وسألته:

«ولماذا الآن بالذات؟»

«أتظنين أن الوقت ما زال مبكراً جداً؟ إن المرء يقول كلاماً فارغاً في أي وقت، يا مليحة، ولا يقصد به أي معنى، وعندما يتوقف الكلام الفارغ فإنني لن أدعك في ريبة من أمرك، أيكفي هذا الآن؟»

فاطرقت برأسها بدون أن تتكلم، وهي تتذكر أنه سيأخذ بزمام المبادرة في أية علاقة يقرر إقامتها مع امرأة. ولن يكون لها أي دور سوى أن تسير خلف قيادته. إن أورسولا هي وحدها التي تستطيع الوقوف في وجهه، وأحست مادلين بالغيرة من أورسولا بسبب ثقتها بنفسها.

وقالت له في مزاح:

«كنت أنا أيضاً أقول كلاماً فارغاً».

وخلّصت يدها من قبضة يده، وأسرعت الخطا لتسبقه وهي تعبر الفناء المواجه للمسجد. وقال لها:

«هذا أمر طبيعي، ما دمت تعتقدين أن النساء متساويات مع الرجال في كل شيء، عندما تصبح المرأة محظية للرجل تفقد الكثير من مكانتها!»

رفعت رأسها ومدت ذقنها الى الأمام وقالت، بعد ان جرح مشاعرها:

«لكي تحكم حكماً سليماً يجب أن تنال قبول أولئك الذين تحكمهم، وهذا هو الجانب الصعب!»

ورد عليها بدون أن يبدو عليه أي تأثير:

«الديمقراطية هي أبعد ما تكون عن الحريم، وسوف أضع هذا في اعتباري في المرة القادمة عندما أقرر معانقتك!»

وأخذ جفناها يرفرفان في عصبية، هذا ليس إنصافاً، فأي جدال يدور بينهما ينتهي دائماً بانتصاره... يستطيع التغلّب عليها في أي وقت يريد، وسوف تخضع له وهي مغتبطة بضعفها، وهذا يمكن تسميته بكيمياء العلاقة بين الجنسين.

وأدار مارك ظهره لها وقد أولى اهتمامه تماماً نحو الفناء الذي كانا يقفان فيه وقال لها:

«يقولون إن المآذن الأربع ترمز الى أن سليمان كان رابع سلطان يتولى الحكم في اسطنبول، والشرفات العشر ترمز الى أنه كان عاشر سلطان في الدولة العثمانية».

وأخذت مادلين تنظر الى المآذن العالية، وهي تشعر بأنه يستحيل على أي إنسان أن يصعد درجاتها الحلزونية لكي يؤذن للصلاة. وقال لها مارك إن هذا ما كان يحدث في الماضي، أما في هذه الأيام فإن مكبرات الصوت تثبت فوق المآذن لكي يؤدى الآذان من خلالها.

ودخل مارك المسجد بعد أن خلع حذاءه، وأحست مادلين بالهيبة والجلال وهي تدخل خلفه، بعد أن خلعت حذاءها، ورأت الجدران التي كتبت عليها آيات من القرآن الكريم، والثريّات المدلاة من الأسقف. وشرح لها كيف واجه سينان مشكلة إنشاء القبة الضخمة للمسجد، وكيف أنه أقام الأعمدة داخل جدران المسجد في الجانبين الشمالي والجنوبي، وعمل على إخفائها بإقامة عدد من الأروقة، وفي الجانبين الشرقي والغربي أقيمت أعمدة أصغر، لأن ثقل القبة الرئيسية تم

توزيعه من خلال عدة قباب، أو ما يشبه القباب الصغيرة. وأكبر شيء شدّ اهتمام مادلين هو نوافذ المسجد بألوانها الجذابة، الأزرق المائل الى الخضرة، والأزرق الداكن والأحمر. ولاحظت أن النوافذ تبدو جميلة عند النظر إليها من الباب ولكن يصعب رؤيتها عندما يصعد المرء اليها، فقال لها مارك أنها صنعت لكي ينظر إليها المرء من زاوية معينة، وأبلغها بأن شخصاً آخر غير سينان هو الذي صنع زجاج النوافذ.

وسألته عن الأبسطة الممتدة من الجدار الى الجدار، فذكّرها بما سبق أن شرحه لها عن سجادة الصلاة المخصصة للعائلة لكي تؤدى عليها صلاة الجماعة، وبين لها كيف تحدّدت فوق السجادة أماكن وقوف كل فرد، وشرح لها كيفية أداء الصلاة من ركوع وسجود، بعد أن يقف المصلي مولّيا وجهه للقبلة في اتجاه مكة المكرمة. وعندما استفسرت منه عما إذا كانت النساء تؤدين الصلاة قال لها:

«نعم، ولكن ليس علناً وإنما في بيوتهن».

وألقت نظرة أخيرة داخل المسجد وهي تتمتم قائلة:

«إن المرء ليشعر بضآلته وهو في حضرة الله، إنني أستمتع بهذا الشعور».

وأيدها قائلاً:

«هذا صحيح».

وأطلعها على المكان الذي يتوضأ فيه المصلون، وقال لها إنه لا يحضر الكثيرون للوضوء هنا، لأنه يمكن الوضوء في أي مكان، وشاهدا صبياً يتوضأ استعداداً للصلاة، فحيّاه مارك وتمنى له التوفيق. وسألت مادلين مارك بقولها:

«كيف تعلمت التحدث بالتركية؟»

«إنني لا أتحدثها بسهولة، فأنا لديّ إلمام قليل باللغة المجرية، ولا أدري إن كان هذا يعنيني أم لا، ولكن ما أردته هو أن أتحدث الى الأتراك بلغتهم وقد أسعدهم أن يقوموا بتعليمي!»

ألقت نظرة أخيرة على الفناء، ورمقته بنظرة ذات معنى وهي تسأله عن قصده:

«هل قلت لكل واحدة منهن يا مليحة»

«كلا يا عزيزتي الغيور، لم أفعل ذلك!»

ومال نحوها واقترب وجهه كثيراً من وجهها، وأضاف قائلاً:

«لست أنت التي تسعى وراء المديح... هل ترغبين في زيارة المتحف الأسلامي الآن؟»

فاومأت برأسها معبرة عن موافقتها، وداعب خدّها بأصبعه ثم شق طريقه حول جدران المسجد حيث تقع المطابخ القديمة. ورأت لافتة صغيرة بالانكليزية والتركية تعلن عن مجموعة من أثمن المؤلفات وكتب التراث الاسلامية في العالم. واشترى مارك تذكرتين للدخول، وقادها الى أولى الغرف. وفيها رأت مجموعات المصاحف النادرة، وخاصة المصاحف التي صنعت في قرطبة بأسبانيا، وتلك التي تنتمي الى عصر السلاجقة، كما شاهدت المصاحف الفاخرة التي ترجع الى العصر العثماني. ورأت لوحة معلقة على أحد الجدران وهي تحمل توقيعات وأختام مختلف السلاطين.

ورأت مادلين نماذج من السجاد التركي القديم الذي صنع منذ مئات السنين، كما شاهدت بعض المصنوعات المعدنية والحلى الذهبية والفضية القديمة جداً. ونظر مارك الى الأغلفة التي كانت تستخدم

في حفظ المصاحف أثناء السفر أو في تخزينها. وسألته مادلين قائلة:

«إنك تبدو شغوفاً بهذه المعروضات، أليس كذلك؟»

فأومأ برأسه موافقاً إياها وقال لها:

«لك أن تتخيلي مستوى الحضارة التي أنتجت هذه الأشياء الجميلة، انها في رأيي واحدة من أعظم الحضارات في العالم!»

فنظرت إليه وهي لا تدري إن كانت توافقه أم تعارضه وقالت له:

«كان الأمر على ما يرام بالنسبة الى الرجال».

فردّ عليها بقوله:

«لقد كان للنساء دور محدود جداً في المجتمع، وهذا جعلهن يكسبن الاحترام، فالحياة العامة متروكة للرجل، أما المرأة فإنها هي التي لها السيادة في البيت، والرجل يوفر لها حاجاتها، وهو رأس الأسرة المسؤول عنها».

وعارضته قائلة:

«ولكن لنفرض أنها أرادت أن تفعل شيئاً في نطاق الحق المباح لها، فهل كانت تستطيع؟»

«نعم كانت تستطيع، ولكن قليلات هن اللواتي كن يرغبن في هذا، فلماذا تتنافس في محيط الرجل في حين أن لها مجالها الخاص بها؟ فإن هي انتزعت من مجالها المخصّص لها، مثلما حدث في بعض المجتمعات والثقافات، فإنه يجب عليها عندئذ أن تلجأ الى مثل هذا التصرف. ولكن في الحالة التي نحن بصددها ما زال دورها كما هو بدون أن يمسه أحد، وهي في غاية السعادة والقناعة بهذا الدور!»

«ربما كان هذا هو رأيك».

«فعلاً، فهي واثقة من نفسها ولا تحاول أن تجعل من نفسها بديلاً

مصطنعاً للرجل وأن تنازله في ميدانه!»

«ولكنها تظل ملكاً له، بغض النظر عما تقوله!»

فضحك مارك وقال لها في تهكم:

«ألا تفضلين أن تكوني ملكاً للرجل على أن تكوني مساوية للفأر؟»

وحوّلت مادلين بصرها عنه وهي تدرك أنها تخوض مناقشة غير مأمونة وقالت له:

«يجب أن اعود الى البيت».

ورمقها لحظة وهي تغالب رغبتها في البقاء معه، وفي عمل كل ما يريده هو، وقال لها:

«إن أردت فهم الاسلام على نحو أفضل فسوف اصحبك لمشاهدة مسجد أيوب».

ووضع يده على كتفها ثم اردف:

«ويمكنك بعد ذلك العودة الى البيت».

وقالت وهي لا تخفي ابتهاجها:

«يقع المسجد عند الطرف الآخر من القرن الذهبي، أليس كذلك؟ نعم يا مارك أرجو أن تصحبني الى هناك! هل سنذهب حقاً الى هناك؟»

٩ ـ هلّي يا مليحة

لم يجد مارك صعوبة في شق طريقه عائداً إلى جسر جالاتا. وسارت مادلين خلفه سعيدة بما تراه. وأرادت أن تعطي بعض النقود لمتسول صادفته في الطريق ولكن مارك منعها فتنهدت قائلة:

«إنك بلا قلب!»

«تقصدين أنني لست شاعراً مثلك. سيأتي اليوم الذي تدهمك فيه الواقعية الصارمة، وتنزل بك الجزاء الذي تستحقين وأنت تلاحقين فراشاتك الجميلة لاصطيادها، وعندئذ سوف تتمزّق حياتك وتتبعثر».

وابتسم في سخرية وأضاف قائلاً:

«لنأمل أن يكون شخص ما إلى جوارك حينئذ لكي يجمع الأجزاء المبعثرة...»

وعبرت الظلال وجه مادلين، فهي تعلم متى ستجيء اللحظة التي تتمزّق فيها حياتها، وهي تدرك أيضاً أنه لن يكون هناك أحد إلى جانبها عندئذ لكي يجمع الشتات المبعثرة. ستأتي تلك اللحظة عندما ترحل عن اسطنبول وتختفي من حياة مارك إلى الأبد!

وأخرجها وصولها إلى جسر جالاتا من حالة القنوط التي تملكتها. كانت الشمس قد اختفت وراء السحب الممطرة لكي يأتي الظلام

مسرعاً كما هي الحال في الشتاء. ولكن الممر المؤدي إلى الجسر كان شديد الازدحام كالمعتاد، وجلس على جانبيه باعة السمك والأطعمة، وراحت النسوة بملاءاتهن السوداء يسرعن الخطى، وهنّ يحملن الحقائب المليئة بالسلع التي اشترينها من السوق، في حين راح الرجال يذرعون الطريق بهدوء وسط السيارات المتلاصقة التي عجّت بها الطريق.

وتخلّفت مادلين قليلاً عن مارك الذي كان يشق طريقه بصعوبة وسط الزحام إلى أن غاب عن بصرها، فراحت تبحث عنه في قلق بالغ إلى أن وجدته واقفاً أمام حلقة لبيع السمك وهو يراقب ما هي فيه من فزع، وقال لها في فتور وبدون أن يبدي أي تعاطف نحوها:

«من الأفضل لك أن تمسكي بيدي!»

وأمسكت بيده وهي تواقة إلى هذا وسألته:

«هل سبق أن شاهدت الجسر وهو مفتوح في الصباح الباكر؟»

«شاهدته مرة، والطريف أن هذا الجسر هو الذي سميت باسمه لعبة الورق المعروفة بلعبة البريدج. فقد ظلّ لفترة طويلة هو الجسر الوحيد عبر القرن الذهبي، ولهذا فقط اشتهر باسم الجسر بدون أن يطلق عليه أي اسم آخر. وتصادف أن كانت أسرة انكليزية يعيش جزء منها عند أحد طرفي الجسر في حين يقطن الجزء الآخر الطرف الثاني. وكان أفراد الأسرة يجتمعون عادة كل مساء لكي يلعبوا بعض طرق لعب الورق التي ابتكروها، ولم يكن البعض يميل إلى عبور الجسر إلى الطرف الآخر بسبب ما كان يتعرض له الأفراد من ابتلال ملابسهم بمياه الأمطار، فاتفقوا فيما بينهم على أن يتبادل الجانبان العبور إلى الطرف الآخر من الجسر كل ليلة، وكان البعض يقول للآخر: عليك الدور للعبور غداً! ولهذا أصبحت اللعبة التي يلعبونها تعرف باسم

بريدج أي الجسر».

اغتبطت بتلك القصة، ولكن انتباهها سرعان ما اتجه ناحية مجموعة من الزوارق أسفل الجسر. وأخذ أحد تلك الزوارق يستعد لشق طريقه عبر القرن الذهبي متجهاً إلى مياه أوروبا العذبة، وهو الاسم الذي يطلق على المجرى المائي الذي يصب في القرن الذهبي. وأخذت تراقب انعكاس ضوء الشمس الغاربة على سطح الماء، وتتخيل هذا المكان في غير هذا الوقت الذي توشك الأمطار أن تهطل فيه.

ولم يكن لدى مارك وقت يضيعه في التخيل، فأسرع باصطحابها إلى محطة للسيارات العامة، حيث استقلا الباص. ولم تجد مادلين شيئاً تتعلق به فأمسكت بيد مارك الذي أخذ يحميها من أية مضايقات قد تتعرّض لها.

وابتسمت مادلين لمارك وهي تراه يطوّقها بذراعه ليمنعها من السقوط، ويمسك بإحدى يديه مقبض النافذة، وأخذت نبضات قلبها تدق مسرعة وهي لا تجد في نفسها القدرة على أن يلتقي بصرها بعينيه، واكتفت بالنظر إلى ياقة قميصه الملون، ورباط عنقه المنقوش المتلاءم مع شخصيته التي تتسم بالرجولة المتعجرفة.

كان الباص يتحرك ببطء شديد، وبدا لها أنه حتى لو كان خالياً من الركاب فإنه ما كان ليستطيع أن يسير بأسرع من ذلك. وأخذ الباص يتمايل ويترنح في سيره، وبذل مارك يده الأخرى باليد الممسكة بمقبض النافذة في حين أخذ يطوقها بذراعه الأخرى. وفي لحظة أحست مادلين بأن شفتيه لامستا أسفل أذنها مما جعل قلبها يسرع في خفقانه، وقد تملكها الحياء الذي منعها من النظر إليه، وراحت تقاوم حتى لا يتلون خداها بالأحمر، ولكنها أحست بأنها أخفقت في محاولتها

هذه، وهو ما تأكدت منه عندما شعرت بذراعه تشتد في تطويقها لها. وراح يبتسم ابتسامة الظافر بطريقة تتسم بالرجولة والتفوّق، وهو ما عبّر عنه أيضاً البريق الذي انبعث من عينيه. وسألها قائلاً:

«ألا ترين يا مليحتي أن كلاً منا في حاجة إلى وصيفة ترافقه لحمايته؟ أو أننا في حاجة إلى عدد من الوصيفات؟»

وحاولت الاحتفاظ بتوازنها وهي تشغل نفسها بالنظر من النافذة إلى الشوارع التي أخذ الظلام يزحف إليها. وتوقف الباص فجأة وأسرع مارك يشق طريقاً لها نحو الباب، واستطاعت هي أن تخلص نفسها من الزحام بصعوبة وتهبط فوق رصيف الشارع، ووقف مارك ينتظر ريثما انتهت من إصلاح هندامها، وقال لها:

«لو أسرعنا لأمكننا أن نرى المسجد من الخارج في ضوء النهار».

ومضى مارك يقول:

«في هذه القرية جلس بيير لوتي في أحد المقاهي يستوحي من الجو المحيط به ما يعينه في كتابة رواياته عن اضمحلال الامبراطورية العثمانية، يجب عليك قراءة تلك الروايات إن أردت معرفة الحالة التي كانت عليها اسطنبول قبل أن يستولي على السلطة فيها الأتراك الشبان.

ولم تزعم مادلين أنها قرأت كتبه، ولكن بما أنها تتمسكَ بالصدق وهي تعلم أنه لابد أن يدرك أنها لم تقرأ أية رواية فرنسية في حياتها، فإنها تحلّت بضبط النفس، وسارت خلفه حتى بلغا ميداناً فسيحاً، وشعرت بجو من السلام والأمان يشيع من حولها وهما يقتربان من مسجد أيوب، وسمعا صوت المؤذن يدوّي: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله ولاحظت مادلين أن المؤذن يؤذّن بنفسه من فوق مئذنة

المسجد بدون الاستعانة بمكبر للصوت.

وقال لها مارك إنه مسجد أيوب بن زيد الأنصاري أحد صحابة الرسول (ص)، وقد أصبح مضرب الأمثال في القدرة على الصبر والتحمل، واستشهد أثناء حصار المسلمين العرب لهذه المدينة عام ٦٦٩ ميلادية، ودفن في ميدان القتال، وظل هكذا بدون أن يستدلّ أحد على المكان الذي دفن فيه، إلى أن رأى السلطان محمد الفاتح في منامه المكان الذي ووري فيه جثمانه التراب أثناء استمرار الحصار. وبالتنقيب في ذلك المكان تبين صحة ذلك، وتم بناء قبر له ومسجد في ذلك الموقع، وعندما أصبح المسجد مهدداً بفعل الزلازل أقيم مسجد آخر، هو المسجد الحالي عام ١٨٠٠ ميلادية. ويتوافد الحجاج على هذا المسجد وهم في طريقهم لأداء فريضة الحج في مكة المكرمة.

كان المسجد يبدو ناصع البياض ونظيفاً من الخارج، برغم حلول الظلام، وعند مدخله بدت أسراب من الحمام في الفناء حيث يقع المكان الذي يتوضأ فيه المصلون. وأمام قبر أيوب وقف صفّ من الناس وكل منهم ينتظر دوره ليأخذ مكانه أمام نافذة القبر لكي يتلو دعاءه.

وخلعت مادلين حذاءها ودخلت خلف مارك إلى المسجد الذي أضيء إضاءة جيدة بالثريا الضخمة المتدلية من وسط قبّة المسجد، في حين غطت أرضه سجادة فاخرة زرقاء اللون تمتد من الحائط للحائط. ولاحظ مارك أن مادلين أخذت تعبث بأصابع قدمها بصوف السجادة الكثيف، فأشار إليها لكي تلحق بالنساء المصليات في الجناح المخصص لهن في مؤخرة المسجد. فأطاعته بسرعة بعدما لاحظت أنها المرأة الوحيدة وسط الرجال.

وتأخر مارك كثيراً في الحضور إليها، فأخذت تبحث عنه بدون أن

تعثر له على أثر، وعاودتها للحظة حالة الذعر التي انتابتها عندما اختفى مارك عن بصرها عند جسر جالاتا، واتجهت بسرعة نحو الباب لترى ما إذا كان قد خرج. ورأت فناء المسجد وقد أصبح خالياً من المصلّين وخيّم عليه الظلام، ولم تجد مارك هناك. وألزمت نفسها بالهدوء قائلة إنه لابد أن يكون في مكان ما وأنه سيأتي بسرعة للبحث عنها. وارتدت حذاءها وراحت تتجول في فناء المسجد غير عابئة بالمطر الذي بدأ يتساقط ويبلل شعرها.

واتجهت إلى نافذة قبر أيوب وأمسكت بقضبان النافذة وأغمضت عينيها وراحت تبتهل قائلة:

«ساعدني يا أيوب».

ولم تسعفها الكلمات لتكمل ابتهالها، إن مارك لن يتغيّر حاله! ولكن إلى أي مدى قدّر لها أن تصبح هي المرأة الوحيدة في حياته؟ وواصلت ابتهالها قائلة: إن كان هذا ممكناً... إن كان هذا ممكناً، فاجعله حقيقة!

وشعرت فجأة بيد مارك تمسك بذراعها، فالتفتت نحوه بسرعة وقد أحسّت بالحرج خشية أن يكون قد قرأ ما دار في خاطرها وشعر بحرارة ابتهالها.

وسألها في دهشة قائلاً:

«هل تتمنّين دائماً أمنية إذا أتيحت لك الفرصة لذلك؟ وهل تقلبين قطعة من النقود عندما ترين القمر الوليد؟»

نظرت إلى السماء ولكنها لم تجد القمر، لابد أن يكون كبر حجمه ولم يعد هلالاً مثلما سبق أن رأته. وقالت له مادلين معاتبة:

«أين كنت؟ بحثت عنك في كل مكان فلم أجدك».

«لا يمكنك أن تفقديني بسهولة، ما رأيك في تناول الشاي؟»

فهزت رأسها موافقة إياه في صمت، ولكنه لم يتحرك بل اتجه نحو نافذة القبر وأحنى رأسه وأخذ يبتهل. واعتقدت في أسى أن الأشياء التي يريدها ليست هي نفس الأشياء التي تريدها هي، فهو يرغب في التخلص منها هي وأورسولا بأسرع وقت ممكن، ولديه من الأسباب ما يدفعه إلى هذا. فهما مصدر إزعاج له منذ تركتها أورسولا وحيدة تائهة.

كان الظلام تاماً عندما عبرا الميدان وهما يتجهان إلى أحد المقاهي في الجانب الآخر، وطلب مارك كوبين من الشاي، وجلس في تراخ يراقبها وهي تحاول بصعوبة امساك الكوب الساخن، وقال لها:

«هلّي يا مليحة، فأيوب معروف بكراماته ومعجزاته، ولكنه لا يميل إلى الاندفاع والتعجل، وعلى كل منا أن يعرف كيف يتحلّ بالصبر».

لم تكن متأكدة مما إذا كانت تعرف حقاً المعنى الذي يتحدث عنه، ولكن صوته كان دافئاً كما أنه ناداها بمليحة، وبالطريقة التي تحبها، وأحست بالارتياح وزال عنها التوتر وعادت لتضحك من جديد. وكان كافياً بالنسبة إليها في تلك اللحظة أن تكون معه، وأن يبدو عليه أنه يرحب باجتماعها معاً.

كان المطر يهطل بغزارة عندما خرجا إلى الطريق، وهزّ مارك رأسه عندما رآها تتجه نحو محطة الباص. وقال لها بجفاء:

«ستجدين سيارات الأجرة أكثر راحة من ركوب باص آخر مزدحم».

وقالت له في تأكيد:

«إنني لا أعبأ بالازدحام».

«ولكنني أعبأ، فرحلة أخرى بالباص ستجعل شعري يشيب، إننا سوف

نعود بسيارة الأجرة واستعدي لهذا!»

فرمقته بنظرة احتجاج فقال لها:

«لا تنظري الىّ هكذا وإلا فلن أكون مسؤولاً عن عودتك سالمة إلى البيت! لقد حذرتك!»

فرحت مادلين وهي تسمع منه هذا الكلام وقالت:

«أيجب أن نعود إلى البيت؟»

فداعب خدها بيده وقال لها:

«هل تعودين مرة أخرى إلى حب المغامرة والتهوّر؟»

كانت أورسولا جالسة في الصالون عندما عادا إلى المنزل وقد بدا عليها الغضب الشديد وبادرت مادلين بقولها:

«كيف تجرؤين على هذا؟ كنت تعرفين أنني لست في حالة طيبة، أين كنت؟ اذهبي لتغيير ملابسك ثم احضري وفسرّي لي تصرفك هذا!»

«ولكنك سمحت لي بالخروج يا سيدة أديناي!»

فنظرت أورسولا إلى ساعتها قائلة:

«كان هذا منذ ست ساعات، وكنت أقصد أن تخرجي لجولة قصيرة أو لشراء شيء ما من المحلات، لا أن تختفي نصف يوم!»

فعضت مادلين شفتها قائلة:

«إنني آسفة».

واتجهت أورسولا ببصرها نحو مارك وقالت له في سخرية:

«هل أشكرك لأنك عدت بها إلى البيت؟ لا أعتقد أنك أنت الذي طلبت صحبتها، ولهذا فإنني أفترض أنها استدرجتك إلى هذا بطريقة ما».

ولم تجرؤ مادلين على النظر إلى مارك.

ورد مارك قائلاً:

«ما كان يجب أن تخرج مادلين بمفردها، فهي تستمتع بالمذكرات التي تكتبها لي، وقد أسعدني أن أكافئها في مقابل ذلك بأن أتيح لها مشاهدة أهم الأبنية التاريخية في اسطنبول».

وقالت أورسولا لمادلين:

«اذهبي يا مادلين وغيّري ملابسك، فلدي كلام أريد قوله لشقيق زوجي، وأفضل ألا تستمعي إلى كل كلمة أقولها!»

وأسرعت مادلين بالصعود إلى غرفتها وهي تهز شعرها المبتلّ وارتدت رداء فاتح اللون.

وأثناء هبوطها السلم عائدة إلى الطابق الأرضي سمعت صوت أورسولا يدوي في القاعة وهي تقول:

«سوف أعيدها إلى لندن يا مارك! ألا تدرك أنني لا يمكن أن أسمح بأن يقف أي شيء بيننا؟ يا عزيزي، إنني أشعر بالتعاسة منذ مقتل بوب، ولا أستطيع الاستمرار هكذا بمفردي!»

فنصحها مارك قائلاً لها في برود:

«عليك إذاً ببيعها، ولن يقف أحد في طريقك!»

«ألا تكنّ أي شعور نحو دار أديناي للنشر؟»

«نعم، فإن حياة المدير الاداري لا تناسبني، ولكنني كنت سأتولى المهمة بصورة أفضل مما فعل بوب، وكان يجب أن أدرك إلى أي نهاية كنت تدفعين بوب وأن أفعل شيئاً من أجل هذا، هل هذا واضح لك بصورة كافية؟»

وطرقت مادلين باب الغرفة بعنف وعصبية، وهي لا ترغب في سماع المزيد من الكلام الذي لا تريدها أورسولا أن تسمعه، وصاحت فيها أورسولا قائلة:

«أتوقع ان تحضري وأنت تتلهفين لسماع حديثنا. ادخلي، ليس هناك مانع من هذا، فانا واثقة من أن مارك يريد شاهداً وهو يتهمني بما يقرب من تهمة القتل».

ورد مارك قائلاً:

«ليس القتل، وإنما الطموح والشراهة، ورغبتك الصارمة في تحقيق غرضك. إن بوب لم يكن نداً لك وأنت تعرفين هذا، هل كان هذا هو السبب الذي دفعك إلى الزواج منه؟»

«نعم!»

«وهل كان بوب يعلم بهذا؟»

وامتقع وجه أورسولا واشتدّ غضبها، وبدت أكبر بكثير من عمرها الحقيقي، وقالت:

«هذا هو السبب الذي دفعه للذهاب إلى فييتنام، قال إنه سيخلي لك الساحة...»

«فكّري فيما تقولين! كان يعلم أنني أريد أن أنفض يدي من هذا الأمر قبل فترة طويلة من ظهورك على مسرح الأحداث. كوني أمينة مع نفسك يا أورسولا. إن ما تقصدينه هو أن بوب أفلت من بين أصابعك وأنني البديل الوحيد المتاح أمامك. ولم يخطر ببالك أنني لو قررت العمل معك لكنت أنا الفائز».

«أريد منك فقط العمل معي! هل ظننت أنني أريد أكثر من هذا؟ إنني لا أتطلع لأن أصبح تلك الزوجة الوديعة القانعة التي سوف تقترن بها!»

«ولكن أحداً لم يطلب منك هذا!»

ولاحظت مادلين أن غضب أورسولا الشديد قد تحوّل إلى

ضحكة متراخية وهي تقول له:

«انت متوحش، وأنا أكرهك، ولهذا السبب بإمكانك أن تصحبني هذا المساء إلى مكان محترم، ما دمت قد خصصت فترة بعض الظهر كلها من أجل الترفيه عن مادلين. فلماذا لا تقدم تضحية مماثلة لي؟»

«ليست في الأمر أية تضحية، أي مكان تفضلين الذهاب إليه؟»

«إلى أي مكان. إلى ناد ليلي إن كنت تعرف نادياً محترماً لا ينتابني الشعور بالخجل من الظهور فيه؟»

«وهو كذلك سنذهب إلى ناد ليلي».

وابتسم وهو يتلفت ناحية مادلين قائلاً لها:

«يبدو أنك ستغيرين ملابسك مرة أخرى».

فقالت أورسولا بلهفة:

«كلا، إنها لن تأتي معنا!»

فقالت مادلين بعدما شعرت بالحرج:

«لا بدّ أن أنتهي من كتابة مذكراتك الليلة».

فقال لها مارك وقد بدا المكر في عينيه:

«إن لم تأتي معنا فلن نذهب!»

عندئذ طلبت أورسولا من مادلين على مضض أن تصعد لتغيير ملابسها على أن ترتدي ملابس هادئة غير صارخة حتى لا تلفت الأنظار اليها. فنظر مارك إلى مادلين وهو يضحك، فبادلته الضحك وهي تقول:

«سوف أصعد لتغيير ملابسي!»

لم تكن لمادلين أية خبرة تذكر بالنوادي الليلية، وحين أرشدهم عامل الخدمة إلى طاولة تتسع لثلاثتهم. قالت أورسولا بارتياح:

«وصلنا في الوقت المناسب، أوشك العرض الأول أن يبدأ، وأمل ألا يكون الأمر قاصراً على تعاقب الراقصات الواحدة تلو الأخرى، إنهن يدخلن السرور في نفوس الرجال ولكنهن يسببن الضجر لي».

وخاب رجاؤها، إذ مالبثت إحدى الراقصات أن ظهرت فوق منصة العرض، وأخذت تحيّي الرجال ثم نظرت إليها وهي تبتسم.

ووقع اختيار الراقصة على مارك لكي يصاحبها في الرقص، فاستجاب لها وصعد معها فوق المنصة، وراحت الراقصة تتثنى وتتلوى في رقصها في محاولة لارضائه. أما هو فجعل كل همّه توجيه الانتقاد إلى طريقة رقصها، وقالت أورسولا لمادلين:

«إن كنت تظنين أن لديه وقتاً لأية امرأة فانظري إليه الآن! إن العطاء من جانبها وحدها، في حين أخذ هو ينتقدها. إن هذا هو مارك أديناي الذي أقدمه لك!»

«مهما يكن فقد حفزها على أن ترقص بصورة أفضل بكثير عن ذي قبل».

ولاحظت مادلين اغتباط الراقصة عندما قدّم لها مارك ورقة نقدية، وتمتمت أورسولا قائلة:

«إنها واحدة من صديقاته! إنني أتساءل عما جعله يأتي بنا إلى هذا المكان. ربما أراد أن يحذّرنا، إن كنا في حاجة إلى تحذير، بأنه غير مستعد للتخلي عما يستمتع به من أجلنا».

ولم تردّ عليها مادلين.

فصاحت أورسولا فجأة:

«مارك، انظر من هناك!»

ونظرت مادلين في الاتجاه الذي أشارت إليه لتجد رجلاً مديد

القامة يرتدي الزي العسكري لجيش الولايات المتحدة وهو ينهض واقفاً ويشق طريقه خلال الموائد المزدحمة متجهاً نحوهم، وتجاهل يد أورسولا الممدودة إليه، وتحدث مباشرة إلى مادلين قائلاً:

«هل في استطاعتي الانضمام إليكم؟ يبدو أنكم تجدون متعة بالعرض، في حين أجلس هناك وحيداً. ألديكم مانع بهذا؟»

فنظرت إليه مادلين قائلة:

«كلا، على الاطلاق».

أتراه كان هو الشخص الذي ذهبت أورسولا من أجله إلى أنقرة؟ أهذا ممكن؟ إنه رجل عادي! وخاصة عند مقارنته بمارك الذي لا يمكن أبداً اعتباره رجلاً عادياً!

وجلس على المقعد الذي أحضره له مارك مولياً ظهره لاورسولا وقال وهو يبتسم في سخرية:

«يبدو أننا لم نتعارف، إنني أوليفر ويلاند».

١٠ ـ احلاماً سعيدة

قال الضابط لمادلين، وهو يعرّفها بنفسه وبرتبته.

«كولونيل اوليفر ويلاند».

وتمتمت مادلين قائلة:

«اهلاً».

ورمقت مادلين أورسولا بنظرة قلقة، إلاّ أن تلك السيدة كانت مشغولة بالانصات لمارك، ورفعت كتفيها قليلا مبدية الاستغلاء، على مادلين التي سألت كولونيل ويلاند قائلة:

«ما الذي تفعله في اسطنبول؟»

«جئت أبحث عن شخص ما، وقد أتيحت لي فرصة راحة لمدة يومين من المناقشات التي نجريها في انقرة، فقررت الحضور الى هنا لهذا الغرض».

وأشاح ببصره عن أورسولا، التي لم تبد أي تجاوب نحوه وقال:

«كنت أتوقع استقبالاً أفضل من هذا، كان يجب عليّ أن أفهم الأمور بصورة أحسن».

ورسم ابتسامة مصطنعة على شفتيه ثم قال:

«لم يذهب كل شيء سدى بعد منذ لقائي بك، هل أنت مستعدة للرفق

بجندي وحيد وإطلاعه على معالم المدينة؟»

وقال مارك في دهاء:

«إن مادلين معتادة على التجوال في المدينة».

فقالت مادلين في شدة وحزم:

«ولكن ليس غداً، فلدي عمل أؤديه».

فهز ويلاند رأسه قائلاً لها:

«ليس أمامي سوى يوم غد فقط، وسيكون كرماً منك إن أنت تعطفت عليّ».

وحرصت مادلين على ألا يلتقي بصرها بعينيه وهو يستعطفها، وقالت له:

«أشكرك، إنني راغبة في هذا».

وأطلق مارك ضحكة جعلت الدم يتدفق الى وجنتيها وسألها قائلاً:

«والى أين ستذهبان؟»

فهز كرلونيل ويلاند كتفيه قائلاً:

«أرجو أن أشاهد السوق المغطى، كما أريد شراء هدية أو هديتين تذكاريتين أثناء وجودي هنا، وسوف أترك أمر اختيارها للآنسة، فأنا شخص مرن».

فقالت له أورسولا بشدة وفي جفاء:

«إنك مغرور بنفسك، وهي غلطتك إن كنت ثقيل الظل وصارماً وغير محتمل!»

«أتظنين ذلك؟ أعتقد أنك تتحملين أيضاً بعض المسؤولية في هذا يا أورسولا، يا حبيبتي».

وتنفست مادلين الصعداء، عندما استؤنف العرض ليجذب انتباههم، وظهرت فوق المنصة الراقصات اللواتي أخذن يقرعن بالصاجات النحاسية المثبتة في اصابعهن السبابة والابهام، ويرقصن بحركات تشبه حركة الكلب الذي ينفض الماء عن جسمه بعد خروجه من الماء، ثم ظهرت بعد ذلك مغنية أسبانية قدمت بعض أغاني الفلامينكو المشهورة وحازت إعجاب الحاضرين.

ونهضت أورسولا لكي تنصرف، وتبعها مارك الذي ساعدها في ارتداء معطفها، في حين ارتدت مادلين معطفها بنفسها، ولاحظت أن الكولونيل ويلاند يسعى لجعلها هي البديل للشخص الحقيقي الذي يبدي الاهتمام نحوه. وسألها وهي تسرع نحو الباب قائلاً:

«هل أستطيع الحضور الى البيت غداً لكي أصحبك؟»

«إن لم يكن المكان بعيداً عنك».

«أعتقد أن في استطاعتي ذلك، كيف يمكنني شق طريقي إلى الجانب الآسيوي من المدينة؟»

أخذت مادلين تتابع أورسولا ببصرها وهي تبتعد وتصعد السلم ثم قالت له:

«لا بد أن أنصرف لأنهما قد لا ينتظرانني!»

فنظر إليها الكولونيل ويلاند في دهشة متسائلاً:

«ولماذا لا ينتظرانك؟»

فقالت له وهي تمسك بحقيبة يدها بقوة:

«يحتمل أنها لم تغتبط بدعوتك لي».

« أورسولا؟ إنها تمثل حالة صعبة يا عزيزتي، وهي لا تعبأ بما أفعل!»

فصاحت مادلين قائلة:

«ولكنني أعمل لديها»

«حظ عاثر، يجب ألا تعطيها الفرصة لكي تستمتع بفرض نفوذها عليك، فأورسولا تكافح من أجل فرض سيطرتها على الآخرين، وليست تلك هي أفضل صفاتها!»

وقالت مادلين مرة أخرى:

«لا بد أن أذهب».

وقالت لنفسها إنه كان يجب على مارك أن ينتظرها، واعتقدت أنه ربما لم يشعر بأنها تخلفت عنها، وهذا وحده سبب لها إيلاماً أشد من أي شيء آخر قد تفعله معها أورسولا. وقالت له:

«الى اللقاء، يا كولونيل ويلاند».

«من الافضل أن تناديني بأوليفر».

فقالت له في تردد:

«أوه، شكراً، اسمي مادلين».

فابتسم بابتهاج قائلاً:

«نعم، إنني أعرف».

وسار خلفها وهي تصعد درجات السلم وربت بيده على كتفها قائلاً:

«سنجعل من الغد يوماً نذكره دائماً، أليس كذلك؟»

فلم تفعل أكثر من أن أومأت برأسها. وأسرعت بصعود درجات السلم القليلة المتبقية وقد أوشكت أن تصطدم بمارك وقالت له وهي تلهث:

«اعتقدت أنك ذهبت، إنني لا أريد أن أترك وحدي!»

«لن أتركك بهذه السهولة.»

«أرجو أن تأتي معنا الى السوق غداً».

« أوليفر سوف يتيح لك قضاء وقت ممتع».

«ولكن...»

ولاحظت نظرة الضيق والتبرم التي رمقتها بها أورسولا، وجعلتها تتوقف عن إكمال كلامها، في حين لمست في عيني مارك علامات التقدير والاطراء لها. وأضاف مارك قائلاً لها:

«وإلى جانب هذا فإن لدي أعمالاً أخرى سأنجزها غداً».

وهنا لم تستطع أورسولا أن تضبط مشاعرها وانفجرت قائلة لمادلين:

«لقد خرجت هذه المرة عن حدودك! سبق أن حذرتك بأنك لم تأتي الى هنا لامتاع نفسك وإنما لخدمتي، وأقل ما كان يجب عليك عمله هو أن تسأليني عما إذا كان لدي اعتراض على قيامك بالتسكع في اسطنبول مع أحد أصدقائي!

وردت عليها مادلين في حدة قائلة:

«وما دمت تعترضين فلماذا لم تفصحي عن هذا، كنت أرجو أن تفعلي ذلك».

«كان هذا واضحاً، فأوليفر رجل جذاب جداً».

فقالت لها مادلين في غضب:

«ولماذا لم تذهبي أنت معه؟»

«ليس هذا من شأنك، إنني لا أدري ما الذي جرى لك أيتها المجنونة. كنا على وفاق من قبل، فلماذا تفعلين الآن كل ما تستطيعين من أجل مضايقتي؟ إنني لم آت بك من أجل أن تتسلي مع أصدقائي، وإنما لمساعدتي. وإن كنت غير مجدة في عملك يا عزيزتي، فإنني سأرسل تقريراً عنك الى لندن، وهو ما سوف يكلفك عملك، ولهذا فإنه يجدر

بك، قبل أن تصاحبي أوليفر، أن تعيدي التفكير في الامر»

وقال مارك في هدوء:

«كفى! أجلي الكلام في هذا الموضوع لحين العودة الى البيت حتى لا نلفت الأنظار من حولنا، لم يكن أمام مادلين من خيار سوى قبول دعوة أوليفر، وأنت تعرفين هذا!»

«إن ما أعرفه هو أنك لا ترغب في سماع كلمة ضد هذه الفتاة التي تعمل عندي، ولكن هذا لن يغير من رأيي فيها».

فانفجرت مادلين قائلة لها في تحد:

«كما لن يغير هذا من رأيي فيك أنت أيضاً»

«مجنونة!»

«لا تصفيني بهذه الصفة التي أمقتها!»

وفوجئت الاثنتان بمارك ينفجر ضاحكاً، ثم أمسك بذراعيهما وسار بينهما قائلا لهما:

«هيا أيتها الحسناوان...لنعد الى البيت!»

وعندما رجعوا الى البيت طلب مارك من مادلين الصعود الى غرفتها قائلاً لها:

«لا تستهلكي كل الماء الساخن».

ومسح بأصبعه على رأسها وهويبتسم وينظر الى عينيها قائلاً:

«اهنأي بنومك، اتمنى لك أحلاماً سعيدة عن أيوب، وأرجو أن تتحقق الأماني التي ابتهلت من اجلها!»

فهزت مادلين رأسها وهي تعلم أن هذا لن يتحقق وقالت:

«تصبح على خير».

وأسرعت بصعود الدرج مبتعدة عنه.

لم يغتبط أوليفر ويلاند عندما حضر الى بيت مارك، وتساءل عما جعله يقطن في تلك المنطقة ولا يقيم في حي آخر أفضل. وكانت أورسولا ما زالت في فراشها عند حضوره، ولم تبد منها أية بادرة تشير الى رغبتها في رؤيته الآن ولفترة طويلة قادمة. ونادت أورسولا مادلين وأبلغتها بأنها لا تمانع في خروجها لقضاء وقت طيب، ولكنها قالت إن أوليفر، وإن كان يبدو شاباً، إلا أنه في سن أبيها، وطلبت منها أن تعتني بنفسها فوعدتها بأن تفعل.

وسار أوليفر بجوار مادلين التي قالت له إن السوق المغطى يعد أكبر سوق من نوعه في العالم. وسألته عن الأشياء التي يريد شراءها من السوق، فتردد قليلا ثم قال لها:

«بعض الذهب لأورسولا، أفضل الأشياء التي تلائم أورسولا، وليس هناك أفضل من الذهب!»

فتنفست مادلين ببطء وسألته:

«هل أبدت أورسولا رغبتها في اقتناء هدية ثمينة؟ أقصد أنني متأكدة من أنها شديدة الاعجاب بك إلاّ أن الذهب يكلف مالا كثيراً».

فقاطعها بجفاء قائلاً:

«لم ترفض أورسولا أية هدية قدمت إليها، وأعتقد أنك لا تعرفينها جيداً يا- مادلين، كم من الوقت أمضيت معها في السفر؟ هل أحضرتك معها الى أنقرة؟ لا أعتقد ذلك، وأظنها جاءت الى تركيا عندما علمت بوجودي هنا، ولكنني أعتقد أن دار أديناي للنشر تستبد بحياتها وروحها، وليس لي أي مكان في خططها ومشروعاتها».

وسألته مادلين وهي تقوده نحو العبارة قائلة:

«هل تعرفها منذ فترة طويلة؟»

«عرفتها منذ كانت لا تزال ترتدي الجوارب القصيرة، بل حضرت حفل زواجها، وكم تمنيت ألاّ أحضره، فقد كان مقدراً له منذ البداية أن يفشل».

وصمت بضع لحظات وهو ينظر إلى مياه البوسفور وأضاف قائلاً:

«إن بوب لم يعرف كيف يسوسها، ولو عاش لكنت قلت له كلاماً معيناً بعد عودته من فيتنام! فالرجل المتزوج ليس من حقه أن يذهب ليضحي بحياته في الجانب الآخر من العالم، إن كان غير مضطر الى هذا. فماذا كان يتوقع؟ أن تشكره أورسولا على ذهابه؟»

«أعتقد أنه كان يريد الذهاب».

«إنه يا حبيبتي لم يستطع الهرب بالسرعة الكافية! كانت تعمد الى تمزيق حياته كلما اجتمعا سوياً، كان إنساناً قانعاً وراضياً بمهنته التي كان يحبها والتي لا تتطلّب منه عملاً كثيراً. ولكن هذا لم يصادف هوى منها! فقد تزوجته وهي تدرك الامكانيات الحقيقية لدار أديناي للنشر وتعرف الطريق الذي ستسلكه. وتحمّل بوب على قدر استطاعته، وهي تدفعه وتستحثه للاسراع في خطاه، الى أن وجد لنفسه مهرباً، وليس غريباً أن يعرّض نفسه للقتل، وكان يمكنني الزواج من أورسولا عندئذ، ولكنني لم أشأ أن تصبح دار أديناي معلقة فوق رؤوسنا مثل طائر القطرس البحري الضخم الذي يحوم حول زواجنا. وطلبت منها أن تختار بيننا، فقالت لي: ومن الذي يريدك؟ وهي لم تكن تريدني. إن واشنطن كلها كانت تنشغل بها عندما تقوم بإحدى حملاتها الصحفية في مجلتها، وتسلط عليها هي الأضواء وتأخذ

كل المجد والشهرة، وهي تقف واثقة من نفسها ومن الطريق الذي تسلكه، ولكن في نهاية الأمر ليس هذا هو كل ما تريده!»

وتطلّعت إليه مادلين بدهشة لتعرف منه ما الذي تريده بالضبط تلك المرأة الأمريكية، فأضاف قائلاً:

« أورسولا فتاة نشأت في بلدة صغيرة، ولها طموحات أهل البلدة الصغيرة، تريد زوجاً يبني حياته بدون عون منها، ويقيم بيتاً بجواره جيران طيبون، وينجب أطفالاً يقلق عليهم آباؤهم ويحبونهم، هذا ما كانت ستحصل عليه لو أنها تزوجتني».

وقالت مادلين لنفسها إنه لا شك يبالغ جداً باعتقاده أن أورسولا يمكنها أن تقنع وأن تتأقلم في بيت يقع في حي جميل مثل الذي تخيّله، إنها لن تلبث أن تختنق وتضيق به ذرعاً خلال أسبوعين، بل خلال يوم واحد! فهي لم تقم بإنشاء مشروع ضخم مثل دار أديناي للنشر، لكي تقيم في مكان مغمور بأمريكا، فلقد ولدت لتكون وسط التطوّرات الضخمة، ولكي تحرّك العالم وفق إرادتها، ألم يدرك هو هذا؟

وابتسم أوليفر قائلاً لها:

«إنك لا تصدقينني، فأرسولا لا تفهم نفسها جيداً، فلو أنها كانت تريد شيئاً بخلاف هذا لتزوجت مارك وليس شقيقه. ولو كان بوب قد تمسك برأيه وقال لها لا من ان لآخر لأمكنهما أن يعيشا سوياً في وفاق. ولكن بوب لم يكن بالشخص الذي يقول لا لأي إنسان. لقد حصلت الآن على كل شيء، ولكنك لا تستطيعين القول إنها سعيدة! فهي تقف مرتعدة فوق المكان المرتفع الذي تسلّقته. هل تعرفين أنها تعاني من الدوار؟ ولهذا السبب لا تميل للتجوال. وسوف أعمل على

إنقاذها من وحدتها فوق قمة التل، في إمكانها الهبوط بنفسها والتنازل قليلاً عن كبريائها التي تعتز وتتمسك بها! وستجد المكان أكثر دفئاً وهي معي في الوادي، وسأرحب بها بذراعين مفتوحتين، ولكنني لن أرغمها على ذلك... فأنا لست بوب أديناي لكي ألقي بنفسي في القبر قبل الأوان، ولكنني أعتقد أنها سترجع عما هي عليه إذا ما اتخذ مارك موقفاً حازماً نحوها».

وسرت البرودة في جسد مادلين وهي تقول له:

«أتعتقد أنه لن يكون حازماً؟»

وراقب أوليفر العبّارة وهي تدخل المرسى بجانب جسر جالاتا، وقال بلا داع:

«لقد وصلنا! إلى أين نتوجه من هنا؟»

«السوق ليس بعيداً عن هنا».

وأخرجت خريطة من جيبها وراحت تتفحصها، وأشارت بيدها الى المكان الذي يتجهان إليه، وعندما نزلا من العبّارة اسرعت مادلين بشق طريقها وسط الزحام، وهي مترددة بين الرغبة في الافلات من أوليفر والرغبة في مصاحبته. إن أوليفر يعرف بلا شك حقيقة ما بين مارك وأورسولا، وهو يعرف أيضاً ما إذا كان مارك يرغب في العودة الى الولايات المتحدة مع أورسولا، وهو ما تريد مادلين معرفته، فيجب أن تعرف؛ ويجب أن يتاح لها الوقت لكي تعتاد على فكرة أنها لن تراه مرة أخرى. لتتعايش بشكل ما مع شبح اليأس المقيت الذي يمسك بخناقها كلّما فكرت في شكل الحياة بدون مارك. لا بد أن تعدّ نفسها لمثل هذا. وسألته فجأة:

«هل يرغب مارك في الزواج من أورسولا؟»

فنظر إليها أوليفر بدهشة قائلاً:

«لماذا تسألين هذا السؤال؟»

«حقاً ما كان يجب أن أسأل، ولكن لا بد أن أعرف! فأورسولا تعتقد أن مارك يحبها، وأظن أنها على صواب!»

وتوقف أوليفر عن السير قليلا وراح يرقب في صمت مآذن وقباب المساجد من حوله، وقال:

«جاء وقت أعتقدت فيه أن مارك سوف يمزّق أخاه، ولكن برغم حبه لأورسولا استطاع أن يتكيف بسرعة مع وضعه الجديد بعد فقدانه لها. فمارك لم يكن يفتقر الى الصديقات».

ونظر إلى مادلين التي احمرّت وجنتاها وسألها قائلاً:

«ألديك اهتمام شخصي بهذا؟»

«ليس بالضبط».

«مارك ليس مثل أخيه، وأشك أنه سيبيع نفسه وروحه من أجل دار أديناي للنشر، حتى لو كانت أورسولا هي الطعم».

«وهو طعم شهّي جداً!»

«هذا رأيي كشاهد، وأقر بأنني مبهور بأورسولا، أما مارك فإنه لا يريد فقط أن تعطي له الأولوية ولكنه يريد أن يكون هو السيّد».

فردّت عليه مادلين باحتجاج وفي حدة قائلة:

«إنه ليس مغروراً، فهو عطوف جداً، ولماذا لا يحصل على ما يريد؟ إنه لا يؤذي أحداً!»

«لم أقل إنه مغرور، برغم أن من حقه أن يكون كذلك ما دام ضحاياه أنفسهم يدافعون عنه. إنني أحسده مثلما يفعل كثيرون غيري من الرجال! ولكن ليس معنى هذا أنني أرغب في أن تكون لأورسولا

علاقة به. إنه سوف يحطمها ويصيبها في أشد المواضع إيلاماً، وهي المواضع التي تتمثل في فكرتها الطيبة عن نفسها، وجاذبيتها بالنسبة الى الجنس الآخر».

واكتفت مادلين بأن هزّت رأسها. فهي تعرف أفضل منه! إن يدي مارك فيهما حزم وقوة ولكنهما غاية في الرقة. وهو أيضاً يحب العلوّ ولكنه ليس العلوّ الشره للسلطة، وإنما علوّ الحب الذي يتطلّب أن يعطي المرء نفسه، ومارك سيطلب كل شيء ولكنه سوف يعطي بلا تحفظ في مقابل هذا. ومن الصعب عليها أن تدرك أنه يحتمل ألاّ يحبّها مارك، ولكنها لن تأسف أبداً لأنها عرفته، فقد علّمها معنى أن تكون امرأة.

وقال أوليفر:

«إن هذا المكان بعيد، أعتقد أننا ضللنا الطريق».

«كلا لم نضلّ الطريق».

وابتهجت مادلين عندما بدت أمامها بعض معالم السوق المغطى، ولم يعبأ أوليفر بأي من المعروضات فيما عدا الحليّ الذهبية التي راح يقلبها وينتقي أفضلها كي يقدمها الى أورسولا تعبيراً عن حبه.

وقال لها أوليفر:

«أورسولا تتحلّ بالكثير من الأساور، ولكنني لم ألاحظ أنها تتحلى بأي خواتم. إنني لم أرها تتحلّ بخاتم الزواج».

وتعرف مادلين أن أورسولا لا تتحلّ بأي خواتم في أصابع يديها لأن أصابعها قبيحة ومظهرها خشن كأصابع الرجال، وهي لا تريد أن تلفت الأنظار إليها بالتحلي بأي خواتم. وسألها أوليفر:

«هل أشتري لها خاتماً؟»

«نعم، ولم لا؟»

وشعرت مادلين بأن من القسوة أن يقدم لها خاتماً في حين أنها تكره ذلك، فاستدركت قائلة له:

«ولكن يمكنك أن تشتري بدلاً من ذلك واحدة من تلك الأساور».

«سأشتري لها خاتماً».

واستغرقت عملية الشراء وقتاً مماثلاً لعملية البحث والانتقاء، وقدّم لها صاحب محل المجوهرات الشاي في أكواب لها شكل الزنبقة، وتمنى لها إقامة طيبة في اسطنبول. واقترحت مادلين على أوليفر أن يقوما بزيارة المسجد الأزرق لأنها لم تره من قبل، فاضطر إلى أن يوافقها على مضض.

وفي داخل المسجد حلقت مادلين إلى آفاق رحبة من الفن المعماري والألوان والأضواء المنبعثة من النوافذ البالغ عددها مائتين وستين نافذة، ونسيت مادلين أن أوليفر بجوارها وقد شحذ خيالها سحر المكان وروعة البناء، والتصميم الذي لم تشهد، بل لم تأمل أن تشهد، أجمل منه. وطلب منها أوليفر أن يعودا الى البيت حتى يقدم لأورسولا خاتمها، فوافقته مقرّرة الرجوع الى هذا المسجد مرة أخرى لكي تتمتع بمشاهدته من جديد.

ارتاحت مادلين لأنها تخلّصت من أوليفر، وجلست تنسّق مذكرات مارك استعداداً لكتابتها على الآلة الكاتبة. وبينما هي جالسة حضر مارك ووقف خلفها وراح يداعب شعرها، وسألها بدهاء عما إذا كانت أمضت وقتاً سعيداً مع أوليفر، فأبلغته بأنهما ذهبا الى السوق حيث اشترى أوليفر خاتماً لأورسولا، وأنه موجود معها

الآن، وقالت له إنهما زارا أيضاً المسجد الأزرق، وهو جميل، إلا أنه لم يصادف هوى في نفس أوليفر، فأبدى مارك دهشته الشديدة لموقف أوليفر، وقال لها إنها كان يجب أن تؤجل زيارة هذا المسجد حتى يصحبها إليه بنفسه.

وأمسكت مادلين بإحدى الأوراق، وراحت تقرأها بصعوبة، فضحك مارك وتركها متجهاً للخروج من الغرفة، ولم تحتمل أن يتركها فدارت بمقعدها ونادته قائلة:

« ماروك بك!»

فاستدار في الحال عائداً إليها وفي عينيه بريق وقال:

«ماذا في الأمر؟»

واشتعل وجهها بلهيب الدم المتدفق الى وجنتيها. ولم يرتسم على وجه مارك أي تعبير يدخل السكينة إلى نفسها، ولم ينطق بكلمة واحدة. وأخذ الورقة من يدها وراح يقرأها لها، ثم وضعها فوق الطاولة المجاورة لها. وكانت التعبيرات الساخرة التي ظهرت في قسمات وجهه مثل وخز الابر، مما جعلها تتسمّر في مكانها ولا تبدي أي استعداد للتحرك حتى لو شبّ حريق في البيت.

وعندما تمالكت شعورها أخيراً واستدارت كي تواجهه تبينّ لها أنه خرج.

١١ ـ وخز الابر

انتهت مادلين من كتابة المذكرات، وأصبحت تعاني من الفراغ لأن أورسولا أصبحت تعترض على خروجها بمفردها، برغم أنها لا تفارق أوليفر تقريباً. لقد قبلت الخاتم منه... ترى هل من عادة الأمريكيين تبادل الهدايا من الخواتم بدون أن يرمز ذلك إلى أي معنى معيّن؟ إنها لا تعتقد ذلك برغم أنه ليس لديها ما يؤكد هذا، ربما كانت تلك إحدى الصفات المزاجية الخاصة التي تتميّز بها أورسولا.

ولم تعد ترى مارك إلاّ قليلاً، وأخذت تشغل نفسها بقراءة كتبه مع التركيز في قراءاتها على موضوع الدراسة التي يجريها مارك. كذلك قراءة ما يتعلق بالمباني والشعوب التي تقطن شرق البحر المتوسط. وحرصت مادلين على ألاّ تصحب إلى غرفتها سوى كتاب واحد في كل مرة، لأنه لم تتح لها الفرصة لتسأل مارك عما إذا كان في إمكانها أن تستعير من مكتبته. ولم تشأ أن تلفت انتباه أورسولا التي أخذت تميل في هذه الأيام لاعطاء تفسيرات لأي شيء.

وفي منتصف النهار نزلت مادلين درجات السلم بعد أن ساعدت محرماه في ترتيب الأسرة. لقد انتهت من قراءة كتاب عن الحياة اليومية في تركيا خلال العصر العثماني، وتذكرت أنها رأت في

المكتبة كتاباً عن الحياة في العصر البيزنطي فأرادت أن تحضره معها إلى غرفتها، لتتسلى به أثناء الساعات الطوال في فترة ما بعد الظهيرة... وفجأة سمعت صوت أورسولا وهي تصيح في غضب، وكاد الدم يتجمّد في عروقها عندما بدأت تدرك ما قالته أورسولا وهي تخاطب مارك، الذي ألمح في سخرية إلى الخاتم الذي أهداه لها أوليفر. قالت له أورسولا:

«أما زلت تغار؟»

«لم أكن أغار إطلاقاً من بوب».

«كيف تقول ذلك يا مارك؟ لقد أمضيت الساعات تحاول إثناءه عن الزواج مني! أخبرني هو بذلك! وعليك أن تعترف بأنك كنت أنت نفسك متيماً بي!»

فاقرّها مارك بدون تردد قائلاً:

«لا أنكر هذا، ولكنني لم أكن أتطلّع إلى الزواج، بعكس بوب. ولو كنت امرأة أخرى لكنت سعدت له، ولكنك كنت تسعين للوصول إلى واشنطن حيث السلطان والنفوذ، أليس كذلك؟ ولم يكن بوب سوى الحجر الذي عبرت فوقه للوصول إلى هناك!»

«كان راضياً جداً بأن يقوم بدور هذا الحجر!»

«إلى أين ستذهبين بعد مغادرتك تركيا؟»

واسترقت مادلين السمع لتتبيّن جيداً كلام أورسولا التي قالت:

«هذا يتوقّف عليك يا عزيزي!»

«هل ستعودين إلى الولايات المتحدة؟»

«طبعاً، إذا عدت معي، ألن تعود معي؟ إنني أعرض عليك كل شيء يا

مارك! ولن أتدخل في طريقة إدارتك لدار أديناي للنشر، أعدك بهذا».

وعندما ما قالت له أورسولا إنه أراد دائماً الزواج منها، قال لها مارك في سخرية إنها إن اعتقدت ذلك ففي إمكانها أن تعتقد أي شيء آخر!

فردّت عليه قائلة:

«ولكنك كنت تريدني...»

«ليس هذا صحيحاً!»

وابتلعت مادلين لعابها... مسكينة أورسولا! ولكنها كان يجب أن تدرك هذا، فلقد أدركت مادلين نفسها برغم أنها فتاة بسيطة وغير معقدة، أن مارك يريدها هي أيضاً، ولكنه لن يتزوج منها، وما الذي يحمله على هذا؟ إنه يستمتع بحريته، وما الذي يمكنها أن تمنحه إياه في مقابل هذا؟ وسمعت أورسولا تقول له:

«إنني أعرض عليك ميراثك، أعرض عليك دار أديناي للنشر، ألا يعني هذا شيئاً بالنسبة إليك؟»

«لا أعتقد ذلك، فعندما كانت داراً صغيرة تهتم بالشؤون المحلية وتعطيها اهتماماً كبيراً كنت أحب العمل فيها، أما الآن فلا. آسف يا أورسولا. فلقد قبلت في الحقيقة أن أشغل منصباً في جامعة البوسفور خلال السنوات الثلاث القادمة».

«ومتى حدث ذلك؟»

وردّ عليها مارك في ثقة:

«بالأمس».

وقالت أورسولا وقد بدت في صوتها نبرة الشعور بالاحباط

«إنني لا أصدق هذا!»

«هذا لا يهمك في المدى البعيد. لقد أدرت دار أديناي للنشر بنجاح تام حتى الآن، فلماذا بدأ اهتمامك بها يفتر؟»

«إنها ليست ممتعة إلى الدرجة التي كنت أتصورها، ولا أريد أن تصبح تلك مهنتي في الحياة، وأظل بلا زوج. وكنت أتطلع دائماً إلى وجود رجل إلى جانبي. وإن كنت لا تريد دار أديناي للنشر فإنني أبيعها وأتزوج من أوليفر. إنه يرغب في الزواج مني».

«أرى أنها فكرة طيبة!»

«ألا تشعر بأي شيء نحوي؟»

«أشعر نحوك بمسؤولية محددة، فأنا لا أحب أن أراك تعيسة وضائعة، وأعتقد أن أوليفر يستطيع أن يحقق نجاحاً في حياته، خاصة إذا ما ابتعد عن عالم النشر وتفرغ لعمله في الجيش».

«إنني أحب أوليفر!»

«فعلاً، إنني أعتقد ذلك، وأقول لك يا حبيبتي أورسولا، بدون أن أقصد مهاجمتك، أنك لم تحبي بوب كما أنك بالتأكيد لا تحبينني».

فانفجرت أورسولا قائلة له:

«إنني أعني ما أقول! سوف أبيع دار أديناي للنشر بكل ما فيها!»

فرد عليها مارك في رقة:

«افعلي ذلك! وأزيحي هذا العبء عن ظهورنا، وتزوجي من حبيبك أوليفر بأسرع وقت ممكن يا عزيزتي. وسوف يشعر بوب في مماته بالسعادة لك كما سأشعر أنا بذلك أيضاً».

«أشك في هذا، ولكن يا عزيزي كم ستكون الحياة مملة. فأوليفر رجل محترم جداً إلى حد مزعج، وسوف نعيش في بيت مريح في مكان

ما، وننجب أطفالاً».

فضحك مارك قائلاً:

«إنك في عجلة من أمرك».

«نعم، وسوف أذهب إليه الآن فعلاً وأخبره بذلك! وسأعود معه إلى أنقرة، ولتذهب دار أديناي إلى الجحيم! في استطاعتهم أن يجدوا مديراً آخر لها. فلماذا إذاً أقلق؟»

«حقاً، لماذا تقلقين؟ ولكن هناك مسألة يجب تسويتها قبل ذهابك للارتماء في أحضان أوليفر، ما الذي سيتم بشأن مادلين؟»

فردت عليه في حدة قائلة:

«ماذا بشأنها؟»

«لقد أحضرتها أنت إلى تركيا يا عزيزتي».

«فعلت ذلك أمام إصرار مكتب لندن على هذا! لم أكن في حاجة إليها حينئذ. ولست في حاجة إليها الآن. أرسلها إلى لندن إن كنت ترغب في التخلص منها...»

فسألها مارك في إصرار قائلاً:

«ما دمت لست في حاجة إليها فلماذا قبلت إحضارها معك؟»

فردت عليه أورسولا بلا اكتراث قائلة:

«لم أشأ أن أدعهم يعرفون أنني ذاهبة إلى تركيا بسبب وجود أوليفر فيها، وكل ما فهموه هو أنني متوجهة إلى تركيا لمقابلة شقيق زوجي الموجود في اسطنبول».

فقال لها مارك:

«وبرغم ذلك فإنك سوف تفعلين شيئاً من أجل مادلين، فهي لم تحصل على أية نقود منذ مجيئها، كما أنك مدينة لها بشيء ما بسبب

الذعر الذي حل بها نتيجة لتصرفك عندما تركتها وسافرت إلى أنقرة».

«افعل أنت شيئاً لها يا عزيزي، فأنا واثقة أنها تفضل أن يأتي ذلك منك أنت، قل لها إنني ممتنة لخدماتها، ثم ضعها في أول طائرة متجهة إلى لندن، سأبعث بمذكرة إلى مكتب لندن لكي يمنحوها علاوة مالية ويصرفوا لها مستحقاتها المالية المتأخرة، ولكنني لن أفعل لها أكثر من هذا!»

ولم تنتظر مادلين سماع ردّ مارك. وأحست ببرودة تسري في جسدها، وأدركت أنها هي المخطئة لقيامها بالاستماع لما يدور من حوار بين الآخرين، وظلت تلوم نفسها طوال عدة أيام، وقد تملكها الاحساس بالذنب برغم أنها غاضبة مما سمعته. فكيف يمكن لأورسولا أن تتزوج من أوليفر وهي تحب رجلاً آخر؟ كيف يمكنها أن تقدم له بضاعة زائفة بهذه الطريقة الوقحة؟ إن مادلين يمكنها أن تغفر لها بسهولة عدم الاكتراث الذي أبدته نحوها هي، ولكنها لا يمكنها أن تنسى أو تغفر لها ما حاولت أن تفعله مع مارك.

وجاء أوليفر في موعده لتناول طعام الغداء، سمعت مادلين صوته ولكنها لم تحاول النزول. وسمعت أوليفر يقول:

«أفضل الذهاب حتى لا أتيح لأورسولا أي فرصة لكي تغيّر رأيها!»

فقالت له أورسولا:

«لن أفعل هذا، ولكنني في غاية القلق ولن أستطيع تناول أي طعام، لا يجب أن ننتظر طعام الغداء».

ونزلت مادلين درجات السلم في تثاقل، وسمعت جدلاً يدور بين أوليفر ومارك عندما أبدى أوليفر امتعاضه لأنه مضطر لعبور

البوسفور من جديد، ولو كان ذلك للمرة الأخيرة، وسأل مارك عما جعله يقطن الجانب الآسيوي من اسطنبول، فأجابه بأنه يفضل هذا، كما أن لديه زورقاً أسفل البيت، وأبلغه أيضاً بأنه سوف يأسف عندما يتم مدّ الجسر بين شطري المدينة، وتصبح الاقامة في هذا الجانب أمراً شائعاً.

وطلبت أورسولا من مارك أن يصحبها في عبور البوسفور حيث يتناولون طعام الغداء سوياً قبل أن يودعها، فوافقها مارك والتقت عيناه بعيني مادلين، وهو لا يستطيع أن يكشف لها عما يدور في رأسه من أفكار، وطلب من مادلين أن تبلغ محريماه بأن أحداً لن يتناول الطعام الذي أعدته. وذكّرته مادلين بأنها ستبقى في البيت فردّ عليها بقوله:

«إذاً سيكون هناك ما أرجع من أجله!»

«أرجو أن تعرف مواعيد الطائرات المتجهة إلى لندن أثناء وجودك في المطار».

«هل تريدين مني أن أفعل هذا فعلاً؟»

فهزّت رأسها بالايجاب وقالت:

«لا يمكنني البقاء هنا، لابد أن أرجع إلى انكلترا!»

فداعب خدها بيده وطلب منها أن تقف معهم حتى ينصرفوا. ودهشت مادلين عندما وجدت أن حقائب أورسولا تم تجهيزها، وابتهجت جداً لأن أورسولا سترحل. سوف تحتفل بهذا وتتناول الطعام الذي أعدته محريماه، وتنتظر عودة مارك إليها. وهي الآن تشعر بأنها ستعيش حياة طبيعية، ستسير الأمور عليها طوال حياتها.

ولم تحاول أورسولا أو أوليفر الالتفات إليها وهما يتجهان إلى

القارب لكي تلوح لها وتودعها، وعندما انطلق القارب لوحت مادلين بيدها، وكان مارك هو الوحيد الذي ردّ عليها بأن لوح بيده لها، بل إنه ابتسم لها أيضاً، كما اعتقدت هي ذلك.

وكانت محريماه في انتظارها داخل المطبخ وهي تمسك بعقد صغير من الخرز الأزرق، وقد بدا على وجهها الشعور بالرضى والارتياح. وانطلقت تتحدث بالتركية وهي مبتهجة. وأدركت مادلين أن الغرض من تلك الخرزات الزرقاوات هو الوقاية من العين الحاسدة، وسعدت لذلك وراحت تقهقه. وكان رأسها مازال يدور في أعقاب ذلك الحدث المثير، وهو رحيل أورسولا. وقالت مادلين لمحريماه بالتركية، وهي تنطق الكلمات بطريقة ببغائية، إنها تريد تناول طعام الغداء.

فهزّت محريماه رأسها، وانطلقت تضحك من جديد، وقد اغتبطت لأن مادلين بدأت تتعلم بضع كلمات من لغة بلادها. وربتت على كتفها وهي تنظر إليها نظرة مليئة بالمشاعر الدافئة التي يتميّز بها سكان البحر الأبيض المتوسط ولم تخطىء مادلين في فهم ما تقصده بنظرتها فقالت لها بصيغة مؤكدة إنها ستعود إلى انكلترا. فقالت لها محريماه:

«كلاً! وماروك بك...»

ولم تكن مادلين تعيرها السمع، فقد انشغل ذهنها بالتفكير، كيف يمكنها أن تحيا بدون مارك في حين أن مجرّد تفكيرها في العيش بدونه يصيبها باليأس والقنوط وجلست تتناول الطعام وفكرت في الخروج بعد الانتهاء منه، ولكنها تذكرت أن مارك لم يحدد لها موعد عودته، وهي لا تريده أن يرجع ولا يجدها في البيت، خاصة وأنه قال لها إنه

يريدها أن تكون في انتظاره عند رجوعه.

واستمتعت مادلين بالكباب وباللبن الذي تناولته بعده، وقالت لنفسها إنها لو تناولت طعامها ببطء فإن مارك ربما يعود قبل انتهائها منه. ولكن مرّت ساعة ثم أخرى بدون أن يظهر له أي أثر. وانصرفت محريماه هي الأخرى عائدة إلى مسكنها لتصبح مادلين وحيدة في البيت، وليس لها من رفيق سوى ظلال المساء، التي بدأت تخيم على المكان.

الليل قد أرخى سدوله عندما فتح الباب ودخل مارك. كانت مادلين جالسة على الأريكة تقرأ كتاباً، وقد أخذتها إغفاءة وسط الضوء الخافت المنبعث من المصباح الوحيد المتدليّ من سقف الغرفة. وهبّت واقفة عندما سمعت صوت خطوات مارك، وقد أمسكت بالكتاب بيديها خلف ظهرها، وسألته:

«هل سألت عن مواعيد الطائرات المتجهة إلى لندن؟ وهل هناك طائرة ستقلع قريباً؟»

فجلس مارك على كرسي وهو يرقب حركاتها وسألها:

«لماذا تتعجلين العودة إلى انكلترا؟»

«السبب واضح!»

«ربما يكون واضحاً بالنسبة إليك، ولكنه ليس واضحاً لي».

ورمقته مادلين بنفاد صبر وسألته:

«هل رحلت أورسولا وأوليفر بسلام؟»

«لقد وضعتها في الطائرة التي أقلعت وقت الغداء، كانت السماء في عونه، لقد نظر إليّ الرجل كما لو كنت قد أسديت له صنيعاً».

فقاطعته مادلين قائلة:

«انه يحب أورسولا منذ وقت بعيد، وهو يعتقد أنها في قرارة نفسها فتاة ريفية».

فانفجر مارك ضاحكاً وقال:

«ربما كان على حق في هذا!»

وكانت مادلين على وشك أن تعترف بأنها سمعته وهو يتحدث إلى أورسولا في الصباح، ولكنها لم تجد في نفسها الشجاعة لتذكر ما سمعته. وتعتقد أنها لا تستحق أكثر من وضعها في طائرة ترجع بها إلى لندن.

ونهض مارك وجلس على الأريكة وأمسك بالكتاب ليرى ماذا كانت تقرأ، ثم رمقها بنظرة ساخرة جعلتها تبتعد عنه إلى الجانب الآخر من الغرفة، وقال لها:

«سوف يفيدك هذا كثيراً في لندن!»

«إنك لم تفهم!»

«أحقاً؟»

«فعلاً، فإنني قد أعود إلى تركيا في وقت من الأوقات، وقد أزور أزمير أو إفيسوس أو...»

ولم تستطع تذكر أسماء مدن أخرى لتزورها في تركيا، ثم قالت في حماسة:

«وربما أعود الى اسطنبول!»

«وهل تحتاجين لدراسة تاريخ الامبراطورية العثمانية من أجل هذا؟»

فحملقت فيه وقد نسيت للحظات مادة الكتاب الذي كانت تقرأه.

«إنني أحب أن أقرأ عن الأماكن التي أزورها».

«وما رأيك في المسجد الأزرق؟»

ففوجئت بسؤاله، وهي في الواقع لم تستمتع بزيارة هذا المسجد لأن الزيارة لم تصادف هوى من أوليفر، ولكن لكي تكون أمينة مع نفسها فإنها يجب أن تعترف بأن مرافقة مارك لها هي التي زادت كثيراً من متعتها أثناء زيارتها، وقالت له:

«مارك، إنني أريد أن أذهب الآن إلى أحد الفنادق».

«أليس الوقت متأخراً لهذا؟»

فهزت رأسها وهي ترجو ألاّ ينطلق صوتها بالصياح وقالت:

«كان يجب علينا أن نذهب إلى فندق من قبل، فأنت لم تكن ترغب في بقائنا في بيتك، ولا ألومك لهذا! فليس من العدل أن نهبط عليك في وقت تريد فيه الاحتفاء بأشخاص آخرين...»

وسألها مارك باهتمام ودهشة قائلاً:

«أي أشخاص تقصدين؟»

فلعقت شفتيها وقالت له:

«هم أشخاص!»

فابتسم بدهاء، وجذبها لتجلس إلى جانبه على الأريكة وهو يهمس في أذنها قائلاً لها:

«أعتقد أنني سأبدأ بالاحتفاء بك أنت».

فأفلتت منه وابتعدت إلى الطرف الآخر من الأريكة وهي تقول:

«سوف أذهب إلى فندق».

«أوه؟ وكيف يمكنك تسديد أجر المبيت بالفندق؟»

فنظرت إليه مستسلمة وقالت له:

«ولكنك لا ترغب في بقائي هنا! وأنا لا أرغب ما تفعله، ويجب ألا تظل خارج البيت لفترة طويلة بسببي! ففي إمكاني الذهاب إلى غرفتي، أو

أذهب لزيارة محرماه، أو أفعل أي شيء آخر!»

فقال لها بأسلوب لطيف جعلها تلتفت وتنظر إليه، قال:

«يا مليحة، لا تكوني حمقاء!»

«لست بحمقاء، وإنما أنا فقط...»

«أنت فقط لك نظرة شاعرية ومستحيلة للحياة! والآن ما الذي يجعلك تشعرين بالذنب؟ يبدو أنك مترددة في الادلاء باعترافاتك كاملة، ما الذي حدث؟ هل قبّلك أوليفر؟»

فاحمرّت وجنتاها ونفت ذلك بشدة قائلة:

«طبعاً لا!»

«حسناً».

«إنه لم يتحدث عن أي شيء آخر سوى أورسولا، وبالاضافة إلى هذا فإنني لا أطوف بالناس لأقبّلهم!»

«أوه، يا مليحة يا حبيبتي!»

لزمت الصمت في إباء، وهي تبحث عن الكلمات التي تفحمه بها، ولكن الذي شغل تفكيرها أكثر من هذا هو أنه ناداها بحبيبتي وبنبرة تدلّ على أنه يقصد معناها، وكم تمنت لو أنه ناداها بهذه الكلمة مرّة أخرى.

فقال لها وهو يستحثها على الرد:

«حسناً، ما قولك؟»

فقالت له باندفاع:

«لقد سمعتك وأنت تتحدث إلى أورسولا هذا الصباح. هل كنت تحبها قبل زواجها من أخيك؟»

ولم يكن يبدو عليه أنه صدم بهذا السؤال، بل بدا وكأنه كان

يتوقعه وقال لها:

«أعتقد أنني كنت أحبها فعلاً لبعض الوقت، ولقد كنت أميل قليلاً إلى الشاعرية في تلك السنّ، وظننت نفسي المحبّ الذي وضعت العراقيل في طريقه».

فقهقهت مادلين وقالت:

«لا أصدق هذا!»

«أؤكد لك ذلك، كنت شديد التحمس لهذا».

«ولكنك لم تتعرّض للعراقيل».

«كلا، ليس دائماً، وقد بدأت حماستي تفتر، مما جعل الأمر أكثر متعة، ولكن لم يكن لهذا علاقة بالحب».

فقالت له وهي تحجب عينيها برمشيها:

«ولكنك عانقتها مرّة».

«مرة واحدة فقط؟»

قالها بلهجة ماكرة مما جعل خدّيها يتورّدان، وسألها:

«هل تناولت شيئاً من الطعام؟»

«لم أتناول شيئاً منذ طعام الغداء. هل تناولت أنت شيئاً؟»

فتنهد وقال:

«أية حياة مثيرة تلك التي تظنين أنني أحياها. لن ينتابك أدنى قدر من الدهشة إن قلت لك بأنني تناولت طعامي في أطباق من ذهب قدّمتها لي ست من الفتيات شبه العاريات. أكنت تدهشين لو قلت لك هذا؟»

«كلا».

«في الحقيقة إنني لم أتناول طعام الغداء حتى الآن، وكنت مضطراً للذهاب إلى الجامعة بعد ظهر اليوم لاحضار بعض الأوراق والشخص

الوحيد الذي أرغب في الاحتفاء به هذا المساء هو أنت نفسك!»

فنظرت إليه وقد اتسعت عيناها وهي تقول:

«أوه مارك، أرجوك أن تفعل!»

فلمس خدها برقة قائلاً لها:

«إذاً، لنفعل كل شيء بالطريقة الملائمة يا حبيبتي، ويحسن أن تذهبي لتغيير ملابسك إن كنت تريدين أن تكوني في مستوى الجميلات اللواتي تناولت العشاء معهن، وسأذهب لاحضار محريماه كي تعد لنا طعاماً شهياً».

ودفع بها نحو الباب قائلاً:

«ولا تتأخري! فأنا أريد أن أتحدث إليك».

فلم تحاول إخفاء سعادتها وسألته قائلة:

«أحقاً تريد؟»

وابتلعت ريقها وهي غير قادرة على السيطرة على انفعالاتها، فقد ناداها أولاً بـ يا حبيبتي وهو الآن يمنحها حبه! وسألته مرة أخرى قائلة:

«عن أي شيء تريد أن تحدثني؟»

فمال إلى الأمام حتى كاد وجهه يلامس وجهها وقال لها بلهجة آمرة:

«أسرعي!»

فردت بسرعة قائلة:

«وهو كذلك، وهو كذلك، سأفعل ... مارك، ماذا في الأمر؟»

فقال لها من جديد:

«أسرعي! إنني لا أستطيع الانتظار لأكثر من هذا. فبالنسبة لأورسولا كان في إمكاني الانتظار، أما معك فأنا لا أطيق

الانتظار، وإن لم تستعدي خلال عشر دقائق سأصعد لاحضارك بنفسي!»

فقالت محتجة:

« مارك!»

فرد عليها:

«بل سأنتظر تسع دقائق فقط».

وصعدت إلى غرفتها وهي تشعر بسعادة غامرة لم تعرفها في حياتها. وقالت لنفسها... ربما لا يريد أكثر من تناول العشاء معها، ولا يريدها أن تبقى معه إلى الأبد، ولكنها لن تعبأ بهذا، ولن تعبأ بأي شيء، فالليلة قد لا تتكرر، وقد لا تصبح قريبة منه إلى هذا الحد مرة أخرى. إنها يجب أن تستمتع بهذه الليلة.

وقررت أن ترتدي رداء طويلاً يتدلى حتى القدمين، واعتقدت أنه يتمشى مع هذه المناسبة، ولديها رداء واحد من هذا النوع فأمسكت به بيدين ترتعشان. إنه مصنوع من الصوف الناعم ولونه قرمزي يتلاءم مع لون شعرها البني الداكن. وارتدته فأخذ شكل قوامها وتدلى حتى قدميها، ونظرت إلى نفسها في المرآة وقالت: مليحة! وتمنت أن يجدها مارك كذلك.

ثم مشطت شعرها حتى اكتسب بريقاً، وابتسمت قليلاً. إن أي شخص ينظر إليها سوف يدرك أنها وقعت في الحب!

كان مارك ينتظرها في غرفة الجلوس عندما هبطت فنهض واقفاً ليستقبلها قائلاً لها:

«مليحتي!»

ولم تدر ما إذا كان هذا تقريراً أم سؤالاً، ولكنها لم تجسر على النظر

إليه لتستوضح الأمر. وهمست قائلة:

«نعم».

وظل واقفاً للحظات طوال بدون أن يبدي حراكاً أو ينبس ببنت شفة، وأمسك بيدها كي يجلسها على الأريكة على طريقة المجاملة التقليدية القديمة، وذهب إلى القاعة ونادى محريماه ليبلغها بأنهما جاهزان لتناول الطعام. وعندما رجع وجدها قد نهضت ووقفت إلى جانب النافذة تطل منها على أضواء الجانب الأوروبي من اسطنبول عبر مياه البوسفور. وقالت له إنها لم تغب سوى أقل من عشر دقائق، فقال لها:

«إنها فترة طويلة! لقد فكرت في أن نتناول الطعام على ضوء الشموع ثم نتحدث».

«أتقول نتحدث؟»

ونظرت إليه لأول مرة فوجدته أنيقاً في ملابس المساء، الليلة أصبح بنفس الصورة التي تخيلته بها أول مرة، ماروك بك! وأخذ اسمه التركي يلحّ على رأسها.

وقال لها في جديّة:

«نعم، نتحدث، إنني يا مليحتي أريدك أن تكوني على ثقة تامة من أنه بعد الليلة لن تكون هناك عودة، هل فهمت؟»

فأطرقت مادلين برأسها وهي لا تفهم شيئاً بالمرة، وابتسمت وهي تقول له:

«أظنك قلت إنك جائع!»

١٢ ـ اسم امرأة

جلست مادلين في مواجهة مارك وأخذ ضوء الشموع ينعكس في عينيها. وراحت محريماه تحوم حولها وهي تطلق ضحكات الابتهاج، وتعلق بالتركية تعليقات لها معنى على ما يبدو، كلما نظرت إليهما وهي تراقب إحجام مادلين عن تناول الطعام المتبل بالثوم وغيره من التوابل، وتكتفي بالطعام الذي أضيف إليه الليمون على الأكثر.

وانتظر مارك حتى ذهبت محريماه الى المطبخ ثم قال:

«هل تستمتعين بالاحتفاء بك في بيتي؟»

«نعم، وأنت على حق فيما قلته عن تركيا، إنها بلاد الرجال!»

فظهر الابتهاج في بريق عينيه وقال لها:

«يبدو أنك لا تكترثين بهذا كثيراً».

وقالت لنفسها... يجب أن تكترث بهذا لو كان عندها أي قدر من الكبرياء. ولكن كبرياءها دفنت منذ فترة من الوقت تحت ركام من العواطف الجياشة التي أحست بها منذ عرفت مارك. وقالت له وهي تنظر الى طبق طعامها:

«كلا، لقد كانت مأدبة رائعة، لا أستطيع أن أتناول المزيد!»

«إذاً، فهذا هو بالضبط الوقت الذي يبدأ فيه الاحتفاء بك، ألا تعتقدين ذلك؟»

فأطرقت برأسها، وهي غير قادرة على أن تقول شيئاً. فوقف وهو يبتسم لها في حنو وحب ولكنها لم تستطع النظر إليه ونهضت وسبقته الى غرفة الاستقبال. وقدّم لها سيكارة فاعتذرت عن قبولها، ونظر إليها وفي وجهه ملامح تنم عن النوايا الشريرة وسألها قائلاً:

«وكيف تريدينني أن أحتفي بك؟»

وأحست بجفاف في حلقها. ولكنها لم تشأ أن تجعله يدرك كم هو سهل بالنسبة إليه أن يستحثها للقيام بأي تصرف، ومالت في جلستها الى الخلف في حالة استرخاء وسألته:

«ما الذي تفعله عادة في تلك المناسبة؟»

وضحك بطريقة أربكتها وقال:

«أعتقد أنك استطعت تخيّل هذا».

وابتسم وانحنى نحوها، ووضع يديه على جانبيها، ثم تركها فجأة وجلس على كرسي بعيد في الغرفة، وقال:

«حدثيني عن بيتك في انكلترا، ما رأي والديك في قيام أورسولا باصطحابك معها في سفرها الى تركيا؟»

لقد أثار موضوعاً لا يصادف هوى في نفسها، فإن آخر شيء ترغب في التحدث عنه هو أسرتها وحياتها في انكلترا. أرادت الليلة ان تكون شخصية أخرى... شخصية فتاة فاتنة تشكل إغراء بالنسبة الى مارك، وليست مادلين التي تختلف تماماً عن تلك الشخصية. وهو الآن يسألها عن والديها وكأن الأمر يعنيه فعلاً.

قالت له إن والديها فرحا لسفرها مع السيدة أديناي، وأن أسرتها

تعيش قرب لندن حياة عادية جداً، ولا يميل والداها للسفر الى الخارج ولكنهما لا يعترضان على سفرها هي، ما دمت أرجع الى وطني ثانية.

ورمقته بنظرة مليئة بالشك وقالت:

«إنهما لن يفهما أبداً!»

«ما الذي يفهمانه؟»

« تركيا... إنها تختلف عن أي شيء عرفاه في حياتهما، وأنا نفسي صرت مختلفة!»

وطرفت برموشها بسرعة وأضافت قائلة بجسارة:

«لا أريد العودة الى وطني... أريد البقاء هنا!»

ولم تكد تلحظ نظرة الانتظار التي رمقها بها وهو يقول:

«وما الذي يمنعك من البقاء؟ إنني لن أخرجك من هنا».

«لا أستطيع. فليس في مقدوري الحصول على عمل في اسطنبول ولا يمكنني أن أعيش بلا دخل، ولهذا فأنا لا أستطيع البقاء هنا».

فضحك قائلاً:

«وما الذي يمنع من هذا، لم يكن هذا يعنيك من قبل، أليس كذلك؟»

«بل كان يعنيني! كان يعنيني بشدة! لم تكن تريد أياً منا بالمرّة».

فاعترف قائلاً لها:

« أورسولا هي التي لم أكن أرغب فيها».

«ولم تكن ترغب فيّ أنا أيضاً!»

فقال بجفاء:

«هذا على قدر علمك أنت، لقد رأيت أن أترك البيت ليوم أو يومين ريثما أستقر في عملي في الجامعة، ولكن عندما وجدتك تقتحمين منزلي، رأيت أن أبقيك هنا بأي شكل حتى ولو اضطررت الى تحمّل سخافات

أورسولا».

فحملقت فيه مادلين قائلة:

«إنني لم أقتحم بيتك!»

«لا تهمني الطريقة التي جئت بها، فأنت على الرحب والسعة. وأنا لم أستطع أن أخرجك من قلبي وعقلي منذ ذلك الحين!»

وأخذ قلب مادلين يخفق وقد استثارتها تلك الكلمات، وقالت له وهي تذكره بابتسامة:

«سبق أن قلت لي إنني جميلة، وأعتقد أنك أيضاً جميل ومازلت عند رأيي هذا! وأرى أنك تبدو وسيماً جداً الليلة».

«مادلين، ليس هذا حلماً شاعرياً بالنسبة إليّ...»

«وما الذي يضايقك من الشاعرية؟»

«لا شيء، فأنا أوافق عليها تماماً عندما تكون في موضعها الصحيح، ولكنني لست ماروك بك يا عزيزتي، ولن أصبح كذلك بالتمني».

«إنني أعلم هذا! ولكن ماروك بك فيه مسحة من الواقع بالنسبة إلي، وأنا أحب أن يناديني بمليحة و... و...»

وأكمل لها كلامها قائلاً:

«وأن أجعلك تعرفين أنك جوزد بالنسبة إليّ».

«نعم، فعلاً».

ونظرت إليه وقد هرب الدم من وجهها وقالت له:

«إن المرء يمكنه أن يستحوذ على الشخصيتين، وأنت تجمع بين الاثنين معاً في نظري، مارك أديناي وماروك بك، وأنا...أنا أحبكما».

فقال لها بنبرة صوتية لم تسمعها منه من قبل:

«أوه يا حبيبتي الصغيرة، إنني شخص متسلط ولن أدعك تذهبين».

جذبها لتجلس فوق ركبتيه وقال لها:

«هل تتحملين البقاء في اسطنبول ثلاث سنوات معي؟»

«أتقول معك؟»

فعانقها وقال:

«لا بد أن تكون هناك وسيلة للزواج هنا».

فتخلصت منه مبتعدة وهي تقول:

«وكيف أتزوجك؟ إنك لا تريد الزواج من أحد! إن مكثت هنا بعض الوقت سأحاول أن أقتنع بهذا، وأنا أعلم أنك ترغب في نساء أخريات وسأحاول ألا أعبأ بهذا، أقصد... أنني سوف أعبأ بهذا ولكنني سأتفهمه، وأنني أرغب في البقاء معك».

فجذبها إليه وضمها بقوة قائلاً:

«هذا هو السبب الذي سنتزوج من أجله، وأي شيء آخر لن يكفيني، إنني لا أدعي أنه لا يوجد جوانب المتعة واللهو في حياتي، ولكن المرء لا يتزوج من أجل الترفيه واللهو يا حبيبتي. لقد أدركت عندما رأيتك لأول مرة أنك تمثلين شيئاً له مذاق خاص جداً بالنسبة إليّ، ولكن الأمر يختلف كثيراً عما أشعر به الآن، فنحن الآن جسد واحد وزوجان، سواء أجري احتفال بهذا أم لا، وإنني أريد أن أعلن هذا للملأ وأن أضع خاتمي في أصبعك...»

فقالت له بلهجة اتهام:

«تريد إذاً أن يعرف كل فرد أنك تمتلكني!»

فرد عليها بحدة:

«ولم لا؟»

«أعتقد أنه يجب أن تضع خاتم الزواج في أصبعك أنت أيضاً!»

فوافقها وهو يبتسم وقال:

«سأفعل إذا شئت هذا».

فتنهدت وقالت:

«الأمر يختلف عندئذ، فأنت عندما عانقتني أول مرة لم يكن يعنيك ما إذا كنت أرغب في هذا أم لا».

«طبعاً كنت أعرف!»

«لا أدري كيف عرفت، كنت أنا منهمكة في الكلام عن رغبتي في تحقيق المساواة».

«ولكن شفتيك قالتا لي شيئاً مختلفاً».

وأضاف يقول لها في رقة:

«والى جانب هذا، لاحظت تعبيرات وجهك عندما ودعتك عند جسر جالاتا، إنك لا تحسنين إخفاء مشاعرك، أليس كذلك؟»

فاعترفت له قائلة:

«لأنني لم أقابل مثلك في حياتي».

«لقد أمسكت نفسي بقدر ما أستطيع عن الاقتراب منك خلال الأيام القليلة الماضية، والآن يا حبيبتي سأعانقك، هل لديك اعتراض؟»

فهزت رأسها قائلة وهي تبتسم:

«وهل هناك أهمية لذلك لو أنني أعترضت؟»

فقال لها مبتهجاً:

«ليست هناك أدنى أهمية».

فاتسعت عيناها وهي تلحظ الطريقة التي يحدثها بها، ثم بدأ عناقه الطويل، وأصبحت كالمسحورة وقد غاب فكرها، وغاب عنها كل شيء سوى أن تتجاوب معه في شوق. وبعد فترة طويلة أخلى سبيلها وهو

يهمس لها ببيت من الشعر يقول:

«إنني أتساءل ، صادقاً، عما فعلته أنا وأنت حتى تحاببنا».

وأضاف:

«سوف آخذك كي تقيمي في أحد الفنادق، وتمكثين هناك الى أن أتزوجك، هل هذا واضح؟»

وإن كان قد خالجها شك من قبل في أن يحبها فقد تأكدت عندئذ من حبه لها، وقالت له:

«أوه، مارك، أشكرك، ولكنني سأمكث هنا إن شئت هذا».

«كلا إنني أستطيع الانتظار، وكل منا يمكنه الانتظار الى أن تصبحي ملك يميني بصفة شرعية. فاذهبي لحزم حقيبتك».

ولم تقل شيئاً، ولكنها أمسكت بيده وقبلتها، ثم أسرعت الى غرفتها قبل أن يغيرّ أي منهما رأيه.

لم تكن مادلين تعتقد أن الزواج يمر بإجراءات مرهقة الى هذا الحد وسألته وهما في زحمة إتمام إجراءات الزواج عن المكان الذي سيعيشان فيه، فقال لها إنهما سيعيشان في تركيا طبعاً. فأشارت الى أنها تقصد أين سيقيمان بعد مغادرة تركيا فقال لها:

«أين تريدين أن نعيش؟ هل تريدين العودة الى انكلترا؟»

«أريد فقط أن أكون معك».

«في أمريكا؟»

«إن كان هذا هو ما تريد».

«لن أطلب منك أن تنزعي نفسك من وطنك».

ونسيت مادلين أن هناك آخرين يقفون الى جوارهما وهي تقول

لمارك:

«سبق أن قلت لي إنني إذا أصبحت ملكاً لك فإنني يجب أن آخذ ما يعطى لي وأن أكون ممتنة لذلك، ألا تدري أنني مستعدة الآن لأن اتبعك الى آخر الدنيا، بل سأحمل الأمتعة أيضاً»

فهزّ رأسه وهو يضحك وقال:

«إنني أعرف سبباً وراء رغبتي في الزواج منك وهو أنني في حاجة الى من يحمل الحقائب، يا مليحتي، من الأفضل أن تسرعي بملء تلك الأوراق قبل أن انس ما عندي من نوايا طيبة، وأحملك وآخذك قبل أن تتم تلك الاجراءات».

وبعد انتهائها من الاجراءات كانت في انتظارها برقيتان من أبوي مادلين يهنئان فيها ابنتها ويشكران مارك لأنه سيجعلها سعيدة.

وفي اليوم السابق للزواج تلقت مادلين حوالة مصرفية من مكتب دار أديناي للنشر في لندن، وفي البداية تصوّرت مادلين أنها حوالة بمبلغ كبير ولكنها عندما فكرت فيا سوف تشتريه بهذا المبلغ أدركت أنه يكفي بالكاد.

ولم يكن بالأمر الصعب على مادلين أن تغادر الفندق وتتجه الى جسر جالاتا وتعبر الى الجانب الآخر، ثم تذهب الى السوق المغطى. ثم اتجهت الى أحد المحلات وقدّمت لصاحب المحل كل الليرات التركية التي قامت بتحويلها بعد أن صرفت قيمة الحوالة، وطلبت منه مصحفاً شريفاً قديماً قيّماً لكي تقدمه الى شخص عزيز عليها. وأبدى صاحب المحل اهتماماً باختيار مصحف شريف ذي قيمة أثرية خاصة عندما علم أنه سيهدى الى ماروك بك. وقدّم لها الشاي أثناء قيام

عامل لديه بإعداد المصحف الشريف في لفافة ملائمة، وروى لها قصة توضح السبب في إطلاق اسم الشاي على هذا المشروب، وهي تتلخص في أنه كان هناك تاجران للشاي قسّما العالم فيا بينهما، فأولئك الذين كانوا يشترون الشاي من التاجر الذي يدعى السيد شاي كانوا يطلقون على المشروب اسم شاي، وأولئك الذين كانوا يشترون من السيد تي يطلقون على الشاي اسم تي. وقد كانت اسطنبول مركز التجارة العالمية، ولها معاملات كثيرة مع الشرق والغرب، ولكن الاتراك أخذوا يطلقون على هذا المشروب اسم شاي.

وعادت مادلين إلى الفندق وهي تحمل معها المصحف الشريف الذي خبأته داخل معطفها لكي تحميه من المطر المتساقط.

وكان الصباح التالي جميلاً مثلما تمنت، ومارك في انتظارها وأصبحت وحدها مع زوجها الذي أحست نحوه بالحياء، وقال لها مارك أنه أبلغ محرماه بأنهما لن يعودا الى البيت قبل المساء، حتى يتاح لها هي ورفاقها تنظيف البيت تماماً، والقيام ببعض الرقيات لطرد الأرواح الشريرة من فراش زواجها!

واحمرّ وجه مادلين حياء، وقدّمت له الهدية، وما أن نزع اللفافة حتى ظهرت عليه السعادة الشديدة. وقالت له مادلين إنها أرادت أن تقدّم له شيئاً ذا قيمة خاصة. فقال لها إنه فعلاً كذلك، وأنه ما كان يتمنى أن يحصل على شيء له نصف جمال هذه الهدية الثمينة. ونظر اليها بامتنان.

وطلبت منه زيارة مسجد أيوب، فسألها عما إذا كانت تريد أن تبتهل مرة أخرى، فقالت له وهي تشدد قبضتها على يده:

«كلا، أريد أن أشكره لأن أمنيتي تحققت».

«هل تحققت فعلاً؟»

قالها بطريقة لطيفة جعلتها لا تعبأ بأن يعرف ما تمنته برغم أنها كانت واثقة من أنه يعرف فعلاً.

وأضاف مارك يقول لها:

«لقد ابتهلت في ذلك اليوم وتمنّيت أن تصبحي لي!»

فصاحت فيه قائلة:

«كنت تعرف بما تمنّيت».

«نعم كنت أعرف».

«فلماذا ابتهالك إذاً؟»

«كنت أخشى أن تكوني على حب مع ماروك بك وليس معي أنا».

«ولكن ألا تعرف الحقيقة الآن؟»

«إنني لا أعبأ في هذه اللحظة بأي شيء يا حبيبتي!»

واستسلمت لذراعيه وهي تتجاوب معه في شوق ثم قال لها:

«إنني أحبك يا مليحة».

وبعدها أصبحت حواسها غارقة في السعادة وقالت له:

«وأنا أيضاً أحبك».

ووصلا الى مسجد أيوب وأخذا دورهما في الصف أمام نافذة القبر، وما أن أصبحت مادلين أمام النافذة حتى أمسكت بقضبانها وهي تعبر عن شكرها الجزيل، ولاحظ مارك وهما يسيران سوياً أنها لم تذكر الشيء الذي شكرته من أجله فقالت له:

«لقد منحني أكثر مما طلبت، فلم أطلب إلاّ أن تحبني أكثر من أي شخص أخر، ولم يدر بخلدي أبداً أنك سوف تتزوجني».

فقال لها بجفاف:

«إنك تحطين بهذا من قدرك».

«كلا، ليس الأمر كذلك، ولكنني لم أكن أتوقع هذا... وسأظل دائماً شاكرة، فأنا لم أفعل شيئاً لكي استحقك، وربما لا أفعل، ولكنني سأحاول ما بوسعي طوال حياتي لكي أكون مثلما تتمنى».

«إنك أنت كل ما أتمنى، وكل ما سوف أتمناه في حياتي...»

فقالت له:

«إنني أشعر بالعطش، هيا بنا نتناول الشاي في المقهى المطل على القرن الذهبي ونحن نرقب غروب الشمس، إنني أريدك أن تعانقني مرة أخرى في ضوء القمر ثم أذهب معك بعد ذلك الى بيتنا!»

وفي طريق العودة وجدت نفسها تردّد كلمات الشاعر جون دون بصوت مرتفع، وقد أحسّت بالسعادة وهي ترى وجه زوجها وضّاء:

«الليلة يتحقق الهناء التام، ويدوّن اسم امرأة».